خالد محمد خالد

إنسانيات

محمد صلى الله عليه وسلم





المقطم للنشر والتوزيع

القاهرة . مصر
٥٠ شارع الشيخ ريحان - عابدين

Tel: (00202) 7958215-7946109

Fax: (00202) 5082233

Email:
elmokatam@hotmail.com

رقم الإيداع ١٤٨٧٢ / ٢٠٠٤
الترقيم الدولى I.S.B.N.
977 - 5732 - 42 - 5




الإهداء

- يا من جئت الحياة، فأعطيت ولم تأخذ.

- يا من قدست الوجود كله، ورعيت قضية الإنسان.

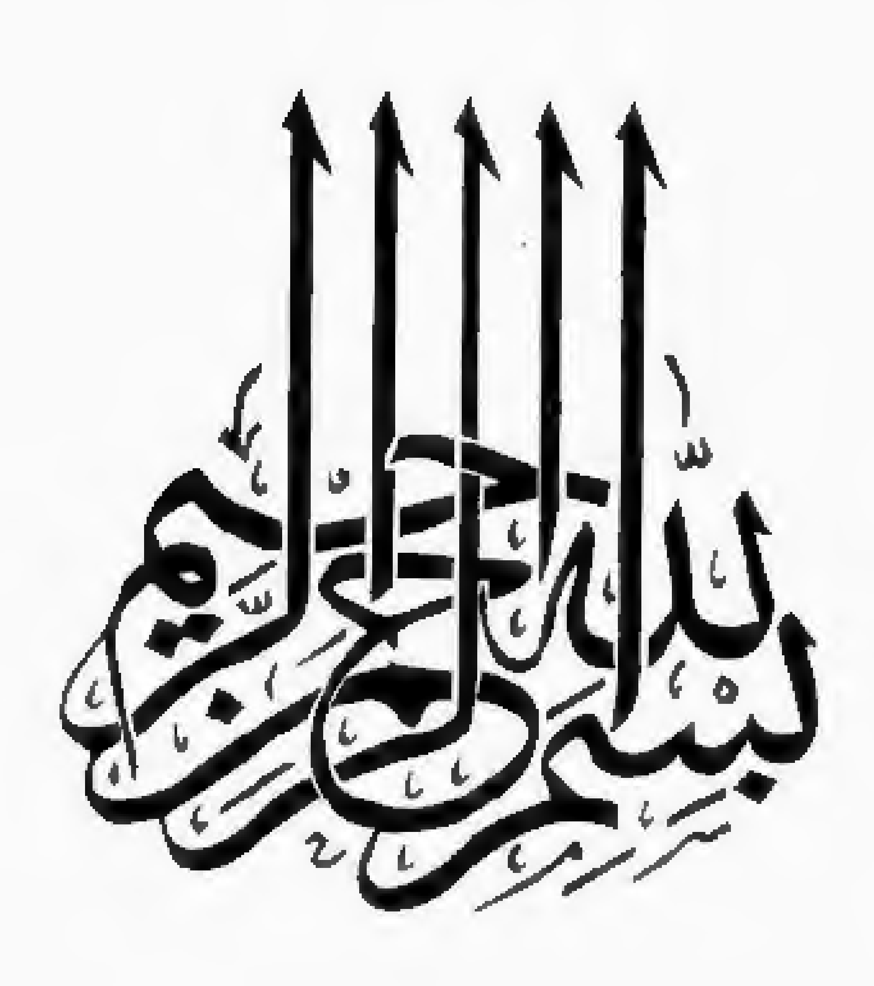
- يا من زكيت سيادة العقل، ونهنهت غريزة القطيع.

- يا من هيأك تفوقك لتكون سيداً "فوق" الجميع فعشت واحداً "بين" الجميع..!!

- يا من أعطيت القدوة، وضربت المثل وعبّدت الطريق.

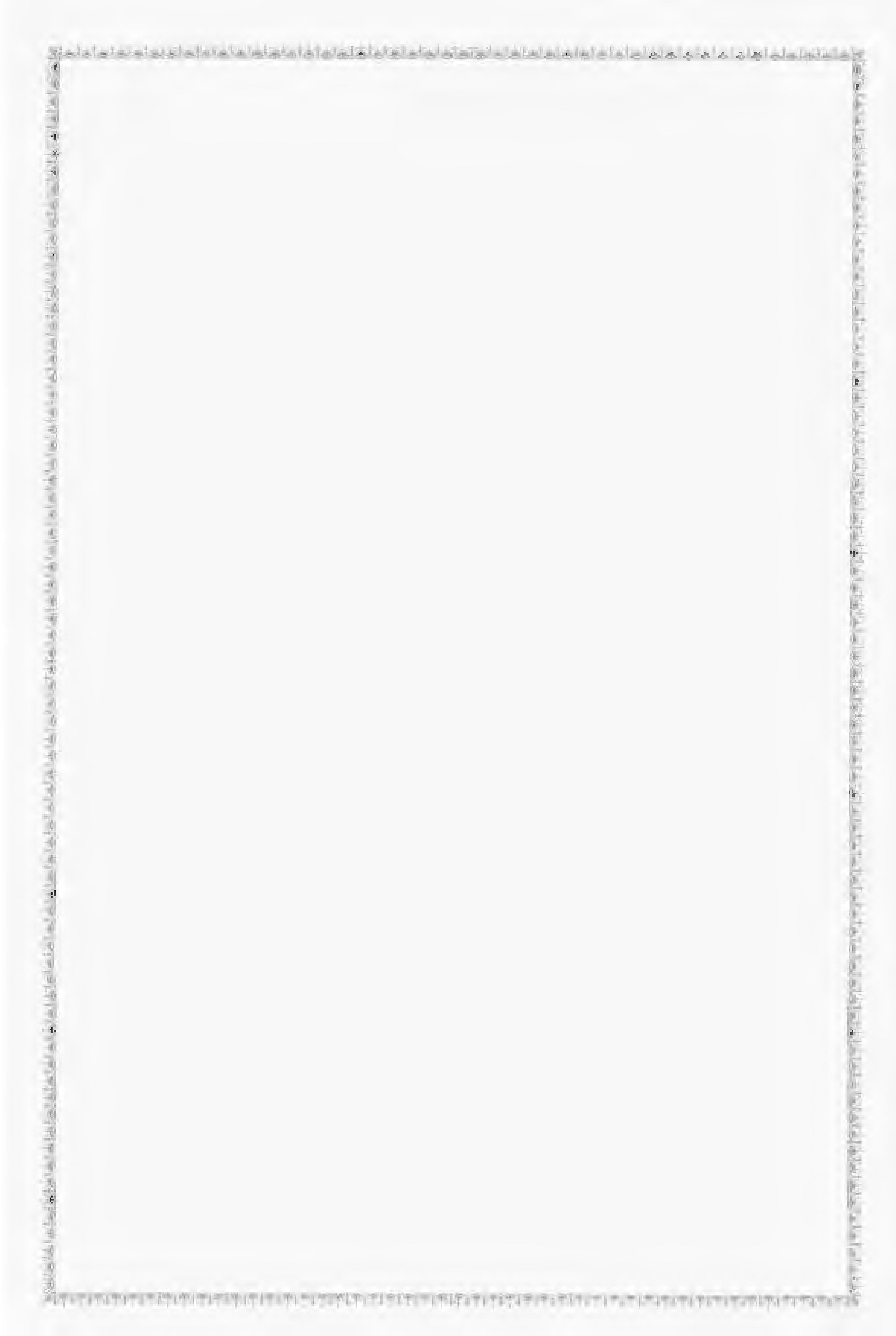
- يأيها الرسول، والأب، والأخ، والصديق.. إليك أهدي هذه الصفحات في حياء من يعلم أنه تجاوز قدره بهذا الإهداء..





بسم الله الرحمن الرحيم

مصادر الأحاديث

- الصحيحان — للإمامين البخارى ومسلم
- مسند الإمام أحمد — لإمام أحمد بن حنبل
- الترغيب و الترهيب — للحافظ المنذرى
- تيسير الوصول إلى أحاديث الرسول — للحافظ ابن الديبع الشيبانى
- رياض الصالحين — للإمام النووى
- الطبقات الكبرى — للإمام ابن سعد



بسم الله الرحمن الرحيم

مُقدِّمة

لو لم يكن "محمد" "رسولاً" لكان "إنسانًا" فى مستوى الرسول..!!

ولو لم يتلقَّ الأمرَ من ربه: ﴿ يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ ﴾ لتلقَّاهُ من ذاتِ نفسه، يأيها الإنسان بلِّغ ما يعتملُ فى ضميرك..

ذلك أن "محمدًا الإنسان" جاوزَ نُضجُه وارتقاؤه كُلَّ تُخُوم الذات وحدودها، ولم يكن ثمةَ سبيل لوقف انتشار هذا النضج، وهذا الارتقاء خارج الذات، وخارج البيئة.. بل خارج كل زمان، وكل مكان..

إن عظمته التى فرضت نفسها، ونادت إليها ولاء المؤمنين، وإعجاب المعرضين..

عظَمته، التى لبثت زهاء ألف وأربعمائة عام، وستظل دوْمًا، ترسل ضياءها وسناها.. وتبثُّ فى ضمير الزمن رشدها، ونُهاها.

عظمته هذه، تنبُع ـ أول ما تنبُع ـ من إنسانية "محمد".. من الطريقة التى كوَّن بها نفسه، ووجدانه، وعقله تحت عين الله ورعايته..

ومن الموقف الذى اختاره والتزمه، تجاه الكون، والناس والحياة..

والحق أن "محمدًا الإنسان" شىء باهر.. فإذا التقى به "محمد الرسول" فإن عظمته آنئذ تجاوز كل حدود الثناء..!

ولكن، لماذا أضع "الإنسان" مقابل "الرسول"..؟؟ أو ليس "الرسول" إنسانًا..؟؟

بلى.. إن "الرسول" إنسان.

وإنما أريد بصفة "الإنسان" هنا، التنبيه إلى أننى أركز الحديث على الطابع البشرى المحض الذى يشترك فيه "محمد" مع غيره من الناس.. والذى تفوَّق فيه على من سواه من الناس.

فهذا الطابع البشرى بكل انفعالات، وبساطته، وتلقائيته ـ هو الذى يُبهجنا ويَبهرنا، لأنه من صنع واحد منا.. واحد مثلنا.. ومن ثم، فهو يمنحنا ثقة بأنفسنا، واحترامًا عظيمًا لبشريتنا التى تنجب مثل هذا الطراز الرفيع من الخَلق..

* * *

ولست أدرى، هل هذا كتاب عن "محمد" أو هو كتابٌ لـ "محمد".. عليه صلاة الله وسلامه؟

فلقد بدأت التفكير فى الكتاب معتزمًا أن أتتبع أحاديث "الرسول" ومواقفه، وأختار منها ما يكوِّن الصورة التى أريدها.. صورة "محمد" الإنسان، دون أن أقْحِم نفسى على هذه المختارات مدركًا أن مجرد تنسيقها، ووضع كل حديث فى مكانه من الصورة، سيكون فصْل الخطاب..

بيدَ أنى لم أكدْ أبدأ، حتى وجدت أحاديث "الرسول" عليه السلام ومواقفه، تمكس على فِكرة خَبْئها النفيس، وحكمتها المُسْتَسِرَّة..

وهكذا سمحتُ لنفسى أن أقفوَ أثرها، وأستنبط منها مَعَالِم النموذج الذى يشكِّل على نحوٍ جليل، إنسانيات "محمد" الباهرة..

وسمحت لنفسى كذلك أن أسطر ما أفاءته علىَّ هذه الأحاديث والمواقف من فهم ومعرفة..

ولقد آثرت الاقتصار فى الاستشهاد، على أحاديث الرسول وتصرفاته؛ لأنها أدلُّ على إنسانية صاحبها؛ ولأنها تصوِّر ـ تمامًا ـ تِلقائية العمل والنزوع لديه.

- هنالك ترى الإنسان الحانى، الذى لا تُفْلت من قلبه الذكىّ شاردةٌ من آمال الناس وآلامهم، إلا لبّاها.. ورعاها.. وأعطاها من ذاتِ نفسه كلّ اهتمام، وتأييد..

- نرى الإنسان الذى يكتب لملوك الأرض، طالبًا إليهم أن ينبذوا غرورهم الباطل.. ثم يُصغى فى حفاوة ورضًا، لأعرابى حافى القدمين يقول فى جهالة: "اعدل يا محمد، فليس المال مالك ولا مال أبيك.."!!!

- نَرَى العابد الأوّاب، الذى يقف فى صلاته، يتلو سورة طويلة من القرآن فى انتشاء وغبطة، لا يُقايض عليهما بملء الأرض تيجانًا وذهبًا.. ثم لا يلبث أن يسمع بكاء طفل رضيع، كانت أمه تصلى خلف "الرسول" فى المسجد: فيضحى بغبطته الكبرى، وحبُوره الجيّاش وينهى صلاته على عجل، رحمة بالرضيع الذى يبكى وينادى أمه ببكائه..!!!

- نرى الإنسان الذى وقف أمامه ـ صاغرين ـ جميع الذين شنوا عليه الحرب والبغضاء، ومثّلوا بجثمان عمه الشهيد "حمزة" ومضغوا كبده فى وحشية ضارية؛ فيقول لهم: "اذهبوا؛ فأنتم الطلقاء"..!!!

- نرى الإنسان الذى يجمع الحطب لأصحابه فى بعض أسفارهم ليَستوقِدوهُ نارًا تنضج لهم الطعام..!!

- والذى يرتجف حين يبصر دابّة تحمل على ظهرها أكثر مما تطيق!!

- والذى يحلب شاته.. ويَخيط ثوبه.. ويَخْصِف نعله..!!

- والذى يقف بين الناس خطيبًا فيقول: "من كنت جَلدتُ له ظهـرًا؛ فهذا ظهرى فليقْتدْ منه"..!!

أجل.. نرى الإنسان ـ أبهى، وأنقى، وأسمى ما يكون الإنسان.

* * *

فَلْنقترِب فى تَهلُّل.. ولنقرأ فى أناة..

واعلموا يا من تطالعون الآن هذا الكتاب ـ أنكـم تعيشون لحظـات مُترعـة بغبطة الحياة، مع إنسان ورسول، رفع الله به قدر الحياة..



الفصل الأول

الرحمة مهجته



يتيم

جعل الله اليُتْمَ له مهدًا

وحين كان أترابه يلوذون بآبائهم، ويمرحون بين أيديهم كطيور الحديقة كان "محمد" يقلب وجهه في السماء...

لم يقل قط يا أبي لأنه لم يكن له أب يدعوه ؟ ولكنه قال كثيرًا، وقال دائمًا يا ربي . !!

أيّ سر في اليتم حتى يختاره الله لأعظم حبيبين لكلمته، مُبلّغين لرسالته ـ المسيح ومحمد...؟!!

أجل، فالمسيح أيضًا كان يتيمًا، وحين جاء الدنيا لم يجد له أبًا. بل لقد أُعلن أنه لم يكن له أب على الإطلاق

وحين كان أترابه كذلك يباهون بآبائهم، ذهب هو يسامي بخير أب، فيشير بكفه المضيئة إلى فوق..

ويقول ـ أبي.. الذي في السماء..!!

تُرى، هل اختار الله لهما اليُتم، ليفجّر الرحمة في نفسيهما تفجيرًا ؟

ربما.. ولنعد للحديث

ولنمضِ مع "محمد" في رحلته وإنها لرحلة تبهر الألباب

والرحمة عند "محمد" لم تكن "ردّ فعل" ليتمه بل كانت "فعلا" مُتسقًا مع وجوده الذي استهل يتيمًا

إنها رحمة الأقوياء الباذلين، لا رحمة الضعفاء البائسين

ومن أقوى بين الأحياء جميعًا ـ من اليتيم الذي يواجه الوجود وحده، وينهض بالعبء وحده، ويختفي من حياته "العائل"، ليظهر فيها "الرجل" وليملأ الفراغ كله، وينمو تلقائيًا كالشجرة الباسقة، ويستمد من ذاته أبوة ذاته؟!!

أجل، إن اليتم لأجل مصادر العظمة شأنًا حين يوافي طفلا يحمل استعدادًا عظيما..

ولقد كان محمد كذلك..

و "محمد" القويُّ يمارس الرحمة ممارسة مؤمن بها، متصمح بعطرها، مخلوق من عجينتها

وبه ـ عليه صلاة الله وسلامه ـ يهتف بها هُتافًا كله ذكاء وحكمة

وحين نطوّف حول أحاديثه عن الرحمة، ومواقفه مع الرحمة، نجد شيئًا يشبه المعادلات الرياضية فهو لا يرحى عن الرحمة مجرد حديث ينعش العاطفة أو يسعف في العزاء..

إنه يتحدث عنها حديث خبير بقيمتها، ويتتبع كل مواطن الحاجة إليها، وكأنه وهو يحيط بها من كل جانب، يصنع لها دستورًا وقانونًا

* * *

"الراحمون يرحمهم الرحمن.."

"ارحموا من في الأرض، يرحمكم من في السماء.."

هكذا قال "محمد"

ولكن من هم الراحمون؟؟

إن فاقد الشيء لا يعطيه

والذى لا يستطيع أن يرحم نفسه لا يستطيع أبدًا أن يرحم غيره

ومن هنا يبدأ الحديث عن الرحمة، ويبدأ الحصرُ عليها ومن براعة الصدق الذى يضيء شخصية "محمد"، ويملؤها نورًا ـ يواجه عليه السلام رحمة النفس والذات مواجهة حاسمة، ويختار لهذا زاوية ما كان يُظن أبدًا أنه يختارها

فمحمد رسول، عابد، جاء ليرفع راية العبادة، ويسوق الناس إليها

أيختار العبادة بالذات لينشئ بينها وبين الرحمة مفاضلة ؟؟

أجل، لقد فعلها الإنسان العظيم، وأعلن أن الرحمة خير من الإفراط فى العبادة وأزكى

"خرج رسول الله ﷺ عام الفتح إلى مكة فى رمضان حتى بلغ موضعًا يُدعى ـ كراع الغميم ـ فصام، وصام الناس. ولما رأى بعض الناس قد شقّ عليهم الصيام بسبب وَعثاء السفر دعا بقدح من ماء، فرفعه حتى نظر الناس إليه، ثم شرب..

ولما قيل له: إن بعض الناس لا يزال صائمًا قال: أولئك العصاة..!!"

* * *

ويحدثنا جابر أيضًا

"كان النبى ﷺ فى سفر، فرأى رجلا قد اجتمع عليه الناس وظُلِّلَ عليه. فقال: ما باله ؟ قالوا: رجل صائم. فقال عليه السلام ليس من البرِّ أن تصوموا فى السفر وعليكم برخصة الله التى رخَّص لكم، فاقبلوها".

إن رحمة النفس تفوق فى اعتبار "محمد" كل شيء فهؤلاء الذين صاموا

فى سفر، وأدركهم التعب فلم يتحللوا عن صيامهم، يدمغهم رسول الله بالعصيان، لأنهم حولوا العبادة إلى تعذيب، ولأنهم تخلوا عن أعظم فضائل الإنسان ـ ألا وهى الرحمة ـ لاسيما الرحمة بالنفس، وبمشقة عافيتها وقوتها

* * *

ولقد ذهب إلى بيت النبى ذات يوم نفر من أصحابه يسألون عن عبادته، فلما خبروا، بدا عليهم كأنهم تقالُّوها، فقالوا: وأين نحن من النبى عليه السلام، لقد غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر..

"قال أحدهم، أما أنا، فإنى أصلى الليل أبدًا، ولا أنام منه شيئًا

وقال آخر: وأنا أصوم الدهر ولا أفطر أبدًا..

وقال ثالث: وأنا أعتزل النساء، فلا أتزوج أبدًا".

أين حقوق النفس البشرية فى كل هذا؟ وأين واجب الرحمة بها؟؟

إن "محمدًا" عنده كلمة الفصل، وسوف يحمى الرحمة من كل عدوان، حتى لو كان عدوان المبالغة فى العبادة والفضيلة!

وهكذا، لا يكاد نبأ هؤلاء يبلغه حتى يسألهم:

"أنتم القوم الذين قلتم كذا، وكذا؟ أما والله إنى لأخشاكم لله، وأتقاكم له، لكنى أصوم، وأفطر وأصلى، وأرقد فمن رغب عن سنتى فليس منى".

* * *

ويبلغه ذات مرة أن عبد الله بن عمرو بن العاص يصوم دائمًا، ويقوم الليل كله، فيقول له:

"بلغنى أنك تصوم النهار، وتقوم الليل، فلا تفعل، فإن لجسدك

عليك حقًا، ولنفسك عليك حقٌ، ولزوجك عليك حقًا - صم، وأفطر.."

"صم من كل شهر ثلاثة أيام، فذلك صوم الدهر."

"قال يا رسول الله إنى أطيق أفضل من ذلك."

"قال فصم يومًا، وأفطر يومًا، وذلك صيام داود "

"وهو أعدل الصيام.."

"قال يا رسول الله إنى أطيق أفضل من ذلك، "

"قال رسول الله: لا أفضل من ذلك.."

ويحكى الرسول نفسه، عن نفسه فيقول

"إنى لأقوم إلى الصلاة وأريد أن أطوِّل فيها، فأسمع بكاء الصبى، فأتجاوز فى صلاتى، كراهية أن أشُقَّ على أمه.."

لا شيء يكشف عن قيمة الرحمة عند محمد عليه السلام، مثل وضعها والعبادة فى كفتى ميزان

عندئذ ترجح كفة الرحمة رجحانًا، أىّ رُجحان !! انظروا

هل تتصورون هذا الرجل المقبل، مُهرْول الخطى إلى رسول الله، يغشاه الفرح، وتغمره البهجة ؟؟ إنه قدم يبايع نبيه على الهجرة معه وعلى الجهاد فى سبيل الله تحت رايته

فاسمعوا حوار "محمد" له

"هل من والديْك أحد حىّ، ؟؟"

"قال الرجل- نعم، كلاهما حى.."

"قال "الرسول"- فارجع إلى والديك، وأحسن صُحبتهما. "

وهذا رجل آخر، جاء إلى "محمد" يسعى ويقول:

يا رسول الله، جئت أبايعك على الهجرة، وتركت أبويَّ يبكيان.

فيجيبه الرسول:

"ارجع إليهما، فأضحكهما كما أبكيتهما."

وثالث يسأل

يا رسول الله، إني أشتهي الجهاد، ولا أقدر عليه

فيقول له الرسول: هل بقي من والديك أحد..؟

يقول الرجل: نعم....

فيقول "محمد" عليه الصلاة والسلام:

"فاتل الله في برِّهما. فإذا فعلت ذلك فأنت حاجٌّ، ومعتمر، ومُجاهد.."

* * *

إن نسمةً تعلو شفتيْ أب حنون، وتكسو وجه أم مُتلهفة، لا ساع عند "محمد" ثمن، حتى حين يكون الثمن جهاداً يُثبّت دعوته، وينشر في الآفاق البعيدة رايته

وهكذا رأيناه يرد إلى الوالدين دمعين، ابناً قَدِم جاء يبايعه على الجهاد، وسمعناه يقول له تلك الآية الباهرة

"ارجع إليهما، فأضحكهما ـ كما أبكيتهما."

إن رحمة النفس تتم عند "محمد" برحمة الوالدين وبرهما، لأنهما مصدر هذه النفس ووعاؤها.

وإذا كانت العبادة تتحول إلى تعذيب، حين تجيء على حساب رحمة النفس فإنها ـ أعني العبادة ـ تتحول إلى عقوق إذا تمّت على حساب رحمة الوالدين

* * *

ثم تنتشر الرحمة لدى "محمد" عليه السلام ـ حتى يغطى دفؤها كل مقرور وحتى تشمل الأحياء جميعًا من إنسان وحيوان.

وفى المواطن التى تعظم فيها الحاجة إليها، نجد الرسول يركِّز إلحاحه عليها فهو ـ مثلا ـ إذا حثَّ على الرحمة بالطفل يركِّز بصورة أشد، على الرحمة بالطفل اليتيم، أو الطفل اللقيط.

وإذا حثَّ على الرحمة بالحيوان، وهو يعمل، يركِّزُ بصورة أوفى، على الرحمة بالحيوان وهو يُذبح

وهكذا يدور قلبه الكبير مع دواعى الرحمة حيث تدور!

والرحمة عند "محمد" ليست نافلة من نوافل البر .. بل واجبًا من واجبات الرُّشد، وتبعة من تبعات الحياة

وهى لهذا تُعبِّر عن نفسها فى عديدٍ من صور الخير، والمشاركة، والأعمال النافعة

يقول أبو ذرّ رضى الله عنه

"سألت رسول الله ﷺ: ماذا يُنجى العبد من النار؟ قال: الإيمان بالله. قلت يا نبى الله، مع الإيمان عمل؟ قال: أن تُعطى مما رزقك الله قلت يا نبى الله، فإن كان فقيرًا لا يجد ما يعطى؟ قال: يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر. قلت: فإن كان لا يستطيع أن يأمر بالمعروف، ولا يستطيع أن ينهى عن المنكر؟ قال: فليعن الأخرق. قلت يا رسول الله، أرأيت إن كان لا يحسن أن يصنع؟ قال: فليُعِن مظلومًا. قلت: فإن كان ضعيفًا لا يستطيع أن يعين مظلومًا؟؟ قال ما تريد أن تترك لصاحبك من خير؟؟ ليمسك أذاه عن الناس. قلت يا

رسول الله، أو إن فعل هذا يدخل الجنة؟ قال: ما من عبد مؤمن يصيب خصلة من هذه الخصال إلا أخذت بيده حتى تُدخله الجنة."

إن أن نتصور النار، على أنها مُنتهى ما ينزل بالشرير من عذاب نفسي أو مادي

ونتصور الجنة على أنها قمّة ما ينال الخيِّر من مثوبة نفسية أو مادية، أو هُما معًا

وفي هذا الحديث نجد الرسول ﷺ قد ساق من أعمال الرحمة والخير عددًا غير قليل ولم يجعل قمّة الثواب وقفا على من يفعلها جميعًا، بل إن واحدة منها تكفي

أجل، واحدة لا غير ـ قادرة على أن تأخذ بيد صاحبها إلى تلك القمة وهذا هو معنى العبارة الجليلة التي جاءت في ختام الحديث

"ما من عبد مؤمن، يُصيب خصلة من هذه الخصال، إلا أخذت بيده، حتى تدخله الجنة."

ومثل هذا، نبأ الأعرابي الذي جاءه يومًا يسأله عملا يقربه من الجنة ويبعده من النار فقال عليه السلام:

"تقول العدل، وتعطي الفضل.. قال: والله لا أستطيع أن أقول العدل كل ساعة، وما أستطيع أن أعطي الفضل

قال فتطعم الطعام، وتُفشي السلام. قال: هذه أيضًا شديدة.. قال فهل لك إبل؟؟ قال: نعم. قال "الرسول": فانظر إلى بعير من إبلك وسقاء ثم اعمد إلى أهل بيت لا يشربون الماء إلا غِبًّا ـ أي نادرًا ـ فاسقهم، فلعلك لا يهلك بعيرك، ولا ينخرق سقاؤك حتى تجب لك الجنة.."

إن الرحمة في أخف تكاليفها وفي أيسر صورها تكنس من طريق المجهود كل الكوارث المحموءة، وتغسل عن الإنسان كل أوزاره، وتصنع عنه كل أثقاله

هكذا يعلمنا "محمد" ﷺ وهو يحضنا على الرحمة ويدعونا إليها

وإنه ـ عليه الصلاة والسلام ـ ليرسم هذا المعنى في لوحة فاتنة، ويوحره في قصة قصيرة ـ تتجلى فيها مع صدق الرسول، عبقرية الفنان

فلنسمعه يقول

"تعبَّد عابد من بني إسرائيل، فعبد الله في صومعة ستين عامًا. وفي يوم، أمطرت الأرض. فاخضرَّت. فأشرف الراهب من صومعته وقال لو نزلت، فذكرت الله وازددت خيرًا فنزل ومعه رغيف أو رغيفان. فبينما هو في الأرض لقيته امرأة: فلم يزل يكلمها وتكلمه حتى غشيها ثم أغمى عليه، فنزل الغدير يستحم، فجاءه سائل. فأومأ إليه أن يأخذ الرغيفين ثم مات فوُزِنت عبادة ستين سنة بتلك الزَّنْيه فرجحت الزَّنيه بحسناته، ثم وُضع الرغيفان مع حسناته، فرجحت حسناته. فغفر له!

يا "لمحمد" من إنسان شغفته الرحمة حبا، فأعلى مكانها على هذا النحو الجليل ..!!!

إن هذه اللوحة الفذة شبيهة بأختها التي صور "الرسول" ﷺ فيها مصير البغي التي صفرت من الله بالتوبة، والشكران، والجنة، لمجرد كونها رحمت كلبًا ظمآن، وهيأت له الشراب..!!

فهل ثمة فنون بالرحمة ويمان يعدل هذا الفنون وهذا الإيمان ؟

إن الله يزن رحمة الناس بعضهم بعضًا بالروح المتبدى في الرحمة وليس بحجمها

وكل صنيعة مهما تكن يسيرة، تدفع عن صاحبها وبالاً كبيرًا وكما قال الرسول ﷺ.

"صنائع المعروف، تقى مصارع السوء..."

ولننظر الآن مشهدًا آخر يعرينا الرسول ﷺ فيه بالرحمة

أتى الله بعبد من عباده، كان قد آتاه مالا فقال له ماذا عملت فى الدنيا؟؟ فقال: يا رب آتيتنى مالا؛ فكنت أبايع الناس، وكان من خلقى الجواز أى التسامح. فكنت أيسر على الموسر. وأنظر المعسر فقال الله تعالى: أنا أحق بذلك منك.

"تجاوزوا عن عبدى.."

يقول "الرسول" ﷺ فى ختام الحديث وأدخله الله الجنة، ويكرر "الرسول" النبأ نفسه فى صورة أخرى فيقول:

"إن رجلا لم يعمل خيرًا قط، وكان يُداين الناس، فيقول لرسوله: خذ ما تيسر، واترك ما عسر، وتجاوز، لعل الله يتجاوز عنا فلما هلك، قال الله له هل عملت خيرًا قط؟؟ قال: لا إلا أنه كان لى غلام، وكنت أداين الناس، فإذا بعثته "يتقاضى"، قلت له: خذ ما تيسر، واترك ما عسُر، تجاوز لعل الله يتجاوز عنا. قال الله له قد تجاوزت عنك..!!"

ألم أقل لكم: إن هيام "محمد" بالرحمة لا يعدله هيام؟

ها هو ذا ـ عليه السلام ـ يتصور إنسانًا لم يعمل خيرًا قط فى حياته إلا أنه كان يرحم المدين، فيصبر عليه ولا يتعجله الوفاء

وها هو ذا يجعل مثوبة هذا الرجل المغفرة الشاملة ويرجو له عند الله

الرحمـــة الواسعة

لقد ذكرت من قبل أن "الرسول" ﷺ يركز على الرحمة تركيزًا شـديدًا، كلما اشتدت الحاجة إليها

ونحن الآن في مقام، الحاجة به إلى الرحمة بالغة.

مقـام أولئـك المساكين الـذين تـسوقهم ضرورات العـيش إلى الـدين، ثـم تعجزهم ضحالة الدخل عن السداد، فيعانون من أجـل الـديون هـم الليـل، وذل النهار.

هؤلاء.. يتقدم "محمد" البار ليأسو جراحهم

إنه لا يملك أن يقول للدائن: تنازل عن حقـك، "فمحمـد" عليـه الـسلام ـ خير من يصون الحقوق

ولكنه يملك أن يهب الدائن شفاعته، وقلبـه، وحبـه ـ إذا هـو أرجـأ مدينـه، وصبر عليه حتى يحين ساعة فرج قريب.

وفي هذا، قال ما تلونا من قبل، وقال كثيرًا

"مـن يـسّر علـى معـسر فـى الـدنيا، يـسر الله عليـه فـى الـدنيا، والآخرة.. والله في عون العبد، ما كـان العبـد فـى عـون أخيـه، مـن أنظر معسرًا، أو وضع له ـ أي تنازل عن جزء من الدين ـ أظله الله يوم القيامة تحت ظل عرشه، يوم لا ظل إلا ظله.."

"من أراد أن تستجاب دعوته، وأن تنكشف كربتـه فليفـرج عـن معسر."

* * *

"أيكم يسره أن يقيه الله عز وجل من فيح جهنم؟ قلنـا يـا رسـول الله، كلنا يسره. قال: من أنظر معسرًا أو وضع له وقاه الله عز وجل

من فيح جهنم."

ويصف "الرسول" العظيم ﷺ الرحمة فلسفة تسمو بها فوق الفضائل الإنسانية كلها ـ وتجعل كل عمل رحيم عبادة من أزكى العبادات.

فعند "محمد" عليه السلام أن أعمال الرحيمة التي نسديها للآخرين إنما يراها الله قربات توجه إليه ذاته.. فلو زرت مريضاً، فأنت إنما تزور الله.. ولو أطعمت جائعاً، فكأنك تطعم الله..

يقول الرسول ﷺ:

"إن الله عز وجل يقول يوم القيامة يا بن آدم: مرضتُ فلم تعُدني.

قال يا رب: كيف أعودك، وأنت رب العالمين؟؟

قال: أما علمت أن عبدي فلاناً مرض فلم تعده، أما علمت أنك لو عدته لوجدتني عنده؟؟ يا بن آدم: استطعمتك؛ فلم تطعمني. قال يا رب: كيف أطعمك؛ وأنت رب العالمين!! قال: أما علمت أنه استطعمك عبدي فلان فلم تطعمه.. أما علمت أنك لو أطعمته لوجدت ذلك عندي؟! يا بن آدم، استسقيتك، فلم تسقني قال يا رب؛ وكيف أسقيك، وأنت رب العالمين؟ قال: استسقاك عبدي فلان؛ فلم تسقه.. أما إنك لو سقيته لوجدت ذلك عندي..!!"

* * *

والناس يخافون.. وحياتهم ملأى بالمخاوف التي لاتؤذن بانتهاء وأعظم رحمة نسديها إليهم، تحريرهم من الخوف قدر المستطاع إن الخوف غول يلتهم سكينة الناس وأمنهم.

والفزع حين يخلع الأفئدة، وتصير هواء ـ لا يبقى للناس ما يمسك عليهم

الإيمان بالحياة. وحين يفقدون إيمانهم بالحياة يستسلمون للضمور، والفتور، واللامبالاة

وممَّ يخاف الناس..؟؟

إنهم يخافون الله

ويخافون أنفسهم ـ أعني، يخاف بعضهم بعضًا..

* * *

أما الخوف من الله. فما كان "محمد" وهو يدعو إلى فضائل يشق على الأنفس فعلها، أن يستبعده من بين وسائل تربيته لا سيما في تلك الأزمان البعيدة التي كان الخوف فيها من أهم وسائل الزجر والتربية والتقويم

ولكن "محمدًا" استطاع أن يقيم إلى جوار التخويف من عذاب الله، الرجاء في رحمته

ولو أننا أحطنا بكل الأحاديث التي بث خلالها الأمل العظيم في رحمة الله، لرأينا محاولة عظمى وناجحة لنسخة الخوف وقهره

لقد أفاض الرسول عليه الصلاة والسلام في تصوير رحمة الله وفي الحث على أن يكون الرجاء فيه والحب له، أساس كل علاقة بيننا وبينه سبحانه وتعالى

وفي رأيي أن "محمدًا" بتركيزه على الرجاء في الله، إنما كان يصطنع منه بديلا للخوف. بحيث يبلغ الناس آخر الأمر مكانة النفسية والروحية التي يتفوقون فيها على الخوف الديني، وتصلهم بالله عندها أواصر الحب، والرجاء، والإخلاص.

إن رحمة "محمد" تتجلى، وهو يقول لنا لا تخافوا إن ربكم رءوف رحيم

وفي تبشيره بالرجاء، أعطاه بكلماته الحلوة، الرطيبة، المضيئة كل وسائل الإقناع والطمأنينة..

فهو يأمر بالرجاء تارة ويجعل الإسراف في الخوف من الله ثمة، تارة أخرى.. ويضرب لنا الأمثال بعبقرية إنسان عظيم

إن ملء الأرض آثامًا وخطايا؛ ليتبدد برقًا، ويذهب هباء أمام ذرة واحدة من رحمة الله

اقرءوا هذا الحديث:

"أذنب عبد ذنبًا، فقال: اللهم اغفر لي ذنبي. فقال الله تبارك وتعالى: علم عبدي أن له ربًا يغفر ذنبه؟ قد غفرت له. ثم عاد فأذنب. فقال: أي رب، اغفر لي ذنبي، فقال الله تبارك وتعالى: علم عبدي أن له ربًا يغفر ذنبه؟ قد غفرت له. ثم عاد فأذنب فقال: أي رب: اغفر لي ذنبي، فقال الله تبارك وتعالى: علم عبدي أن له ربًا يغفر ذنبه؟ قد غفرت لعبدي، فليفعل ما شاء."

إن الإنسان الذي صوّره "الرسول" ﷺ في هذا الحديث لم يكن في رجعته المكرر للخطيئة سوى صورة لما جميعًا.. صورة لضعف البشري تُسلمنا لأهواء النفس

وإنه ليتقرّر من الخطأ

ويقول: رب اغفر لي.. ثم يعود للهوى، ثم يعود للرشد، وهكذا.. حياته رحلة دائبة بين الخير والشر.. ومع هذا فإن مجرد إحساسه بالخطأ، ومجرد إيمانه بأن الله سبحانه برحمته ومغفرته أعني أن رجاءه في الله، أطفره حسب سياق الحديث السوي برحمة الله الواسعة المتمثلة في هذه العبارة

"قد غفرت لعبدي، فليفعل ما شاء"[1]

وفى حديث آخر يصور لنا رحمة الله الواسعة فيقول

"جعل الله الرحمة مائة جزء، فأمسك عنده تسعة وتسعين، وأنزل فى الأرض جزءًا واحدًا، فمن ذلك الجزء يتراحمُ الخلائق؟ حتى ترفع الدابة حافرها عن ولدها خشية أن تصيبه.."

إن كل ما فى الأرض من رحمة نرى مظاهرها، ليست سوى جزء واحد من مائة جزء، فلنتصور إذن الأجزاء التسعة والتسعين التى استأثر الله بها لنفسه كى يرحم بها الناس، يوم تشتد إلى رحمته حاجتهم؟؟

هذه صورة باهرة لرحمة الله تطرد عن الأفئدة كل فزع منه

ويعرضها "الرسول" ﷺ بصورة أخرى حين رأى أمًا تضم طفلها إلى صدرها فى حنان بالغ، فالتفت إلى أصحابه وقال لهم

"أترون هذه طارحة ولدها فى النار. ؟؟ قال أصحابه لا، والله يا رسول الله. قال: لله أرحم بعبده المؤمن، من هذه بولدها."

ويقول عليه السلام

"إن الله تعالى يبسط يده بالليل ليتوب مُسيء النهار، ويبسط يده بالنهار ليتوب مسيء الليل.."

ويقول أيضا

"يُدْنَى المؤمن يوم القيامة من ربه حتى يضع عليه كنفه، فيقرره

(١) وعبارة "فليفعل ما شاء" ليست إذنًا بالخطيئة ولا إلغاء لمسئولية الإنسان عنها إنما هى صورة لعظمة تتم بها الصورة التى يرسمها الرسول ﷺ لرحمة الله بعباده.

بذنوبه فيقول، أتعرف ذنب كذا؟ أتعرف ذنب كذا؟ فيقول: رب أعرف. فيقول الله له: فإنى قد سترتها عليك فى الدنيا، وأنا أغفرها لك اليوم فيعطى صحيفة حسناته.."

والآن، تنبلج من قلب "محمد" الكبير الرحيم، لوحة تندهش فى الإبداع، تصور رحمة الله فى بهاء عظيم

إنها قصة موحرة يقرب فيها من الأذهان ـ على عادته ـ الخلاصة النهائية لرأيه الذكى فى رحمة ربه الكبير.

انظروا

"كان فيمن قبلكم رجل قتل تسعًا وتسعين نفسًا. فسأل عن أعلم أهل الأرض فَدُلَّ على راهب فأتاه. فقال إنه قتل تسعة وتسعين نفسًا، فهل له من توبة.؟ قال الراهب: لا.. فقتله الرجل، فكمل به مائة، ثم سأل عن أعلم أهل الأرض، فدلَّ على رجل عالم فقال: إنه قتل مائة نفس فهل له من توبة.؟ فقال له: نعم، ومن يحول بينك وبين التوبة. انطلق إلى أرض كذا، وكذا، فإن بها أناسًا يعبدون الله تعالى فاعبد الله معهم.. ولا ترجع إلى أرضك فإنها أرض سوء. فانطلق، حتى إذا نصف الطريق أتاه الموت. فاختصمتْ فيه ملائكة الرحمة، وملائكة العذاب. قالت ملائكة الرحمة: جاء تائبًا، مقبلاً بقلبه إلى الله تعالى..

وقالت ملائكة العذاب: إنه لم يعمل خيرًا قط. فأتاهم ملَك فى صورة آدمى، فجعلوه بينهم حكمًا، فقال قيسوا ما بين الأرْضَين، فإلى أيتهما كان أدنى فهو لها.. فأوحى الله إلى بلد المعصية أن تباعدي، وإلى بلد التوبة أن اقتربي.. فقاسوا بين البلدين، فوجدوه إلى

بلد التوبة أقرب بشبر، فغفر له..؟؟".

إن "الرسول" ﷺ لا يرضى القتل، ولا يشجع عليه. بل إنه لم يعرف جريمة تعدل الشرك بالله، سوى الإصرار بالناس. مجرد الإصرار بهم، فما بالك بقتلهم، وإزهاق حياتهم.

وهو في الحديث السالف يضع رحمة الله تجاه أكبر الكبائر وأفدح الجرائم ـ ليرينا كيف أن التوبة الصادقة تمحت جرائم كُثرًا، وأفاءت على صاحبها عفو الله غدقًا..!!

ولقد اختار للقصة ختامًا باهرًا.

فجعل الرجل قريبًا إلى بلد المعصية، ليرينا أن رحمة الله حين تجيء، لا تقف في طريقها شيء. حتى القوانين الطبيعية والكونية. فلقد تقصَّ الله الأرض من أحد أطرافها، حتى إذا قيست المسافة بين الرجل وبلد التوبة كان إليها أقرب فتأخذه ملائكة الرحمة..!!

أيُّ فنان صادق عظيم، يستطيع أن يرسم لرحمة الله الواسعة لوحة أزهى وأجمع من هذه اللوحة الفاتنة الجليلة..؟؟!

إن التوبة باب مفتوح بين الله وبين عباده، يصلهم به بالليل، وبالنهار. وإن الله ليفرح بتوبة الإنسان ورجوعه عن الخطأ، أشد من فرح أب حنون فقد ابنه في فلاةٍ مُوحِشة. وفجأة يلقاه أمامه سليمًا مُعافى!!

والطاعات تمثل عند "الرسول محمد" ﷺ معنى أسمى مما يخطر بالنا، فهي ليست مقصودة لذاتها، لا، ولا هي مقصودة لما تفضي إليه من ارتقاء نفسي فحسب. بل هي قبل هذا وبعد هذا، السبيل الذي يؤهلنا لمصافحة الله، والالتقاء به.

لنقرأ معًا هذا الحديث الذي يتمثله "محمد" ﷺ حكاية عن ربه.

"يقول الله عز وجل: من جاء بالحسنة، فله عشر أمثالها، أو

أزيد.. ومن جاء بالسيئة، فجزاء سيئة سيئةٌ مثلها، أو أغفر.. ومن تقرَّب مني شبرًا تقربت منه ذراعًا، ومن تقرب مني ذراعًا تقربت منه باعًا، ومن أتاني يمشي، أتيته هرْولة.. ومَن لقيني بقُراب الأرض خطيئة لا يشرك بي شيئًا، لقيته بمثلها مغفرة."

لنظر مَليًّا هذه الصورة الحانية المشتاقة التي يتصور بها "محمد" حنان الله علينا وشوقه إلينا.

إنه سبحانه يريدنا.. يريدنا بجانبه على أية حال.. طائعين أو آثمين.. إن ذراعيه مفتوحتان تتلقيان مقتنا ورجاءنا بحنان مفيض.

انظروا هذه الكلمات:

"من أتاني يمشي، أتيته هرْولة.!!!"

أيَّ تصور ذكي مشرق عظيم الصحة.. هذا الذي يتصور به "محمد" ربه وبارئه.. وربنا وبارئنا.؟؟

إن الله يريدنا أن نطيعه.. لأن الطاعة تجعلنا في حالة فاضلة تؤهلنا للقائه، والتلقي عنه.

إن الطاعات هي الخطوط التليفونية التي تصلنا بمركز وجودنا، الله رب العالمين.!!

وإذا أخطأنا.. إذا أذنبنا.. فلا ينبغي أن نتحطم وننسحق تحت وطأة الشعور بالإثم، بل علينا أن ننهض من جديد.. وألا نخاف الخطيئة أبدًا.. لأننا أكبر منها، ولأن عفو الله أكبر منا ومنها جميعًا!!

هذا ما نفهمه عن "محمد" ﷺ وهو يسدي إلينا أفسح رحمة وحين يحررنا من وطأة الشعور بالذنب.

انظروا

"والذى نفسى بيده لو لم تذنبوا لذهب الله بكم، ولجاء بقوم يذنبون فيستغفرون؛ فيغفر لهم..."

هل كان الرسول ﷺ بهذا يشجع الخطايا، ويُروِّج لها..؟؟

كلا.. وإنما هو يعالجها أنجع علاج، حين يهبنا من الأمل فى رحمة الله، ما نتفوق به على الضعف أمامها.

هذا الضعف الذى لا يورثه شيء، مثل دوام احترامها، والإحساس الضاغط بها

إن حسن الظن بالله، هو ما يريده "محمد" ﷺ من الناس حتى يحبوا ربهم، وحتى يُنشئوا علاقتهم به سبحانه على أساس رضى مكين من الأمل، والرجاء، والشوق

وهو هنا يوصيهم قائلا:

"لا يموتن أحدكم إلا وهو يحسن الظن بالله عز وجل"

ويقول

"قال الله تعالى: أنا عند ظن عبدى بى وأنا معه إذا دعانى"

ويقول

"إن حسن الظن بالله تعالى من حسن العبادة"

ويكافح "الرسول الإنسان" جميع أولئك الذين يُقنِّطون الناس من رحمة ربهم ويمقتهم مقتًا شديدًا، ويضرب لهم مثلاً فيقول:

"كان ثمة أخوان: أحدهما يعبد الله، والآخر يعصيه.. وذات يوم

قال الذي يعبد للآخر: أما آن لك أن ترعوى؟ والله لتدخلن النار، ولن يغفر الله لك.

ولما توفاهما الله، وقفا بين يديه. فقال للعابد: من الذي أمرك أن تتألّى علىّ - أي تتحكم في رحمتي وتحلف على ما لا تملك؟ اذهبوا به إلى النار، وقال للآخر: ادخل الجنة برحمتي."

إن رحمة "محمد" ﷺ هنا، لتجوزُ كل حدود الإطراء.. فهو من فرط رحمته بالناس، يضن بها على المتحرين الذين يروحون لليأس، وهو يدرك إدراكًا سديدًا رشيدًا أن الرحمة ليست ترفًا، إنما هي ضرورة.. وأحق الناس بها، أكثرهم حاجة إليها.. وفي هذا المقام، مقام الخطيئة والذنب يصير العصاة أحوج العبيد إلى رحمة الله، وإلى الأمل في الله.. ومن ثَمّ فهو يرفض أي تقنيط لهم من رحمة ربهم؛ ويعتبر مثل هذا العمل ذنبًا أكبر من كل ذنب..

وهو يُنَحّي كل قوى التثبيط واليأس عن علاقة الناس بالله، ويرسم صورة من أعذب وأمتع الصور التي تحكي برّ الله بالناس، وأبوته الحانية لهم جميعًا يقول عليه السلام:

"ما من يوم تطلع شمسه إلا وتقول السماء: يا رب ائذن لي أن أسقط كسفًا على ابن آدم؛ فقد طعمَ خيرك، ومنع شكرك وتقول الأرض: يا رب ائذن لي أن أبتلع ابن آدم؛ فقد أكل خيرك، ومنع شكرك. وتقول البحار: يا رب ائذن لي أن أغرق ابن آدم، فقد أكل خيرك، ومنع شكرك، وتقول الجبال: يا رب ائذن لي أن أطبق على ابن آدم؛ فقد أكل خيرك، ومنع شكرك..

فيقول الله لهم جميعًا: لوْ خلقتموه، لرحمتموه، دَعُوني، وعبادي.. إن تابوا إليّ فأنا حبيبهم، وإن لم يتوبوا، فأنا طبيبهم. !!!"

هذه اللوحة المبهجة التى يرسمها "محمد الإنسان" تناهت فى الجلال والمغزى

فهو يفترض حالة يُحاطُ فيها الإنسان بالأخطار والعداوات من كل جانب.. من فوقه، ومن تحته، وعن يمينه، وعن شماله.. ثم لا يجد إلا رحيمًا ودودًا واحدًا، هو ربه ومولاه..

ثم هو يكشف فى كلمات آخذة عن طبيعة الرحمة التى يُظلّل الله بها عباده إنها رحمة الخالق بخلقه الذى براه بحكمته، واصطنعه لنفسه.

إنها رحمة الوالد بولده

نظروا هذه العبارة المشرقة

"لو خلقتموه، لرحمتموه"!!!

إن مكان الناس من الله، مكان الرائح الغادى بين حبيب وطبيب

هكذا رسم "محمد" ﷺ الصورة حين قال حاكيًا عن الله عز وجل

"دعونى وعبادى، إن تابوا إلىَّ فأنا حبيبهم.. وإن لم يتوبوا فأنا طبيبهم."

وإذا كان الله فى حال رضاه عنا، يكون الحبيبَ الذى لا منتهى لِلمحات حُبّه وفى حال أسفه منا، يكون الطبيب الذى تأسو الجراحَ لَمسات طِبّه

فكيف إذن يكون مصدر فزع أو خوف ؟؟!!

حاشاه.. وسبحانه.

وأكرِمْ به من حبيب.

وأنعم به من طبيب..

* * *

والرحمة عند "محمد" تعمل عملها في إحساسة قويمة وتتسع القلب الكبير "لمحمد" كل الأسباب التي تجعل الرحمة حقيقة واقعة وسائغة ينعم بها كل إنسان..

وفي ضوء هذا الموقف، يمكن أن نفهم جميع التوجيهات والوصايا التي يدعونا فيها "الرسول" ﷺ إلى الطاعة وإلى الخير، فهو لا يريد بوصاياه وتوجيهاته أن يتحكم فينا، أو أن يسوقنا.

بل تمامُ رحمته بالناس أن يدفع عنهم الأخطار، ويجنبهم مهابَّ الريح السوداء اللافحة

فإذا دعا إلى خير وحضَّ عليه، فبدافع من رحمته..

وإذا نهى عن شرٍّ، وحذَّر منه، فباعث من رحمته.

فالرحمة الإنسانية، هي التي تشحذ حرص محمد ﷺ على خيرنا وعلى مصيرنا وهي التي تجعله يأمر بالحسنى، وينهى عن السوء.

ومن أجل هذا، كان يخاف على الناس من ذنوبهم، وكان يرى تلك الذنوب كأنها أخطار داهمة تتهدد حياتهم وسلامتهم

يقول عليه السلام

"إن المؤمن يرى ذنوبه، كأنه قاعد تحت جبل يخاف أن يقع عليه"

و "محمد" ﷺ على الرغم من أنه "رسول" مسئول عن رسالته، لا يقف من العصاة موقف المتألي، والمسيطر، بل موقف الرءوف الرحيم العزيز عليه عَنَتهم، الحريص كل الحرص على نجاتهم وسلامتهم

وإنه ليحدِّد مكانته هذه، في كلمات جليلة فيقول

"مَثَلى ومَثَلُكم، كمثل رجل أوقَدَ نارًا، فجعل الجنادبُ والفَراش يَقَعْنَ فيها، وهو يذُبُّهن عنها وأنا آخِذٌ بحجزِكم عن النار، وأنتم تُفلتون من يدى..!!!"

هذا، هو موقف "محمد" تماما من الذين يقودهم الهوى إلى الخطأ ليس عليهم بمسيطر، ولا هو عليهم بجبَّار إنه إنسان يحمس تحت إنسانيته ورشده نجههم، فهو يدفعهم عن الخطأ، كما يدفع الفراش عن النار ب أبهج روحه، وهو يقول "وأنتم تُفلتون من يدى"..!!

ويرد "الرسول" ﷺ الأمر كله إلى رحمة الله، لا إلى ما للناس من أعمال مهما تكن صالحة ذلك أن أعمالنا الصالحات، مهما تكن كثرتها ووفرتها، لا تفى بشكر نعمة واحدة من أنعُم الله الكبرى

يقول عليه الصلاة والسلام

"قاربوا وسدِّدوا.. واعلموا أنه لن ينجُو أحد منكم بعمله.

قالوا ولا أنت يا رسول الله ؟ قال: ولا أنا إلا أن يتغمَّدنى الله برحمة منه وفضل.."

هذا هو "محمد" لا يأخذه الغرور بما يقدم من عبادة وطاعة، وبهذه العبادة تثقل بها الموازين لأنه يعلم أن النعمة كلها من الله، وأنه إذا كان قد هُدى إلى الخير، فالفضل من الله وحده وهذا يقتضى أن يعرف مكانه تماما من الآخرين الذين نسعفهم نصيبهم من الهدى فهو لا يتعالى عليهم، ولا يستخف بهم، بل يدعو لهم ويشفق عليهم، ويُصلى من أجلهم، ويتتبع حب الخير الذى فيهم مهما يكن ضئيلا، فيشيد به، ويبعث منه ثقتهم بأنفسهم .

انظروا،

"جيء الرسول ﷺ ذات يوم برجل قد شرب خمرًا.. فلما أبصره أصحابه قالوا: لعنه الله ما أكثر ما يُؤتى به شاربًا. فصاح الرسول ﷺ فيهم: لا تلعنوه، فإنه يحب الله ورسوله !!.."

أيُّ إنسان مشرق كان "محمد" ﷺ ؟؟؟

إنه لا يهدم أقدار الناس لما فيهم من ضعف، بل يضع عينه على الخير الذي فيهم، ويهتف به...!!!

وها هو ذا، على الرغم من أنه الرسول، وصاحب رسالة دينية، تحرم الخمر، ونراها إحدى الموبقات الكبائر يكرم في إنسان يشرب الخمر فضيلة قد انطوى عليه. تلك هي فضيلة الحُب !

"لا تلعنوه، فإنه يحب الله ورسوله"!! و "محمد" ﷺ إذن، وهو يُركز على حب الخير وفعله وبُغض الرذيلة وتركها، إنما يفعل هذا ـ كما قلت ـ بدافع من رحمته بالفرد وبالجماعة

بالفرد حتى لا يُفضي به السوء الذي يقترفه إلى بؤسٍ نفسي يكدر صفو حياته.

وبالمجموع لأن المجتمع ما لم يرع الحقوق المشروعة، ويتواص بالفضائل والخير، فإنه يصيب نفسه بشر ما يُمزقها

و "محمد" ﷺ يدرك هذا، ويضرب له مثلا بليغًا:

"مَثَلُ القائم على حدود الله، والواقع فيها، كمثل قومٍ استهموا على سفينة، فصار بعضهم أعلاها، وبعضهم أسفلها فكان الذين في أسفلها، إذا استقوا من الماء مرُّوا على من فوقهم فقالوا: لو أننا خرقنا في نصيبنا خرْقًا، ولم نؤذ من فوقنا.. فإن تركوهم وما أرادوا هلكوا جميعًا وإن أخذوا على أيديهم نجوا، ونجوا جميعًا"

وهذا الإدراك الإنساني السديد، يُحدد الطريقة التي يأخذ بها "محمد عليه صلاة الله وسلامه" على أيدي العُصاة بها الرحمة أيضًا، والرحمة دائمًا

ولطالما كان يجيئه مُذنبون، يعترفون له، فيحاول هو أن يردهم عن اعترافاتهم، حتى لا يضطر إلى أن يُنزل بهم ما شرع الله من عقاب، مُرجئًا أمرهم إلى رحمة الله الواسعة!!

وإنه ينأى عن الذين لا همَّ لهم إلا التشاؤم بأخطاء الناس، واليأس من صلاحهم

يقول عليه السلام في هذا المقام

"إذا سمعتم الرجل يقول: هلك الناس، فهو أهلكُهُم. أي أشدهم هلاكًا."

هنا إنسان بارٌّ. هنا أبٌ للإنسانية رفَّاف

هنا قلب كبير كبير جدًّا لا يعرف القسوة، ولا الغرور، ولا التشفي، ولا اليأس.

هنا "محمد" وكفى

* * *

بهذه الرحمة واجه "محمد" ﷺ خوف الناس من الله ذلك الخوف الذي زحَم قلوبهم ورُؤاهم

وانتهى بهم إلى رب رءوف رحيم تُقيلُ العثرة، ويقبل التَّوب، ويغفر الذنب، ويفرح بعودة عباده إليه، فرحَ الوالد الحنون بعودة ابنه المفقود

بقي أن نرى كيف طرد "محمد" النوع الآخر من الخوف الخوف من الناس.

* * *

ماذا يخاف الناس من الناس..؟

إن الخوف هو فقدان الشعور بالأمن فكل ما من شأنه أن يُضعف هذا الشعور أو يُزيله، فهو عمل من أعمال الإخافة والإرهاب.

ووراء كل الأعمال العدوانية التي تبعث على الخوف ـ يكمن دافع جبّار، هو قسوة القلب

قسوة القلب، أو قسوة الضمير ـ هي التي تُفرز كافة الأعمال والتصرفات التي تسلم ضحاياه للأسى والخوف...

والقسوة، حتى حينما تتقمص عملاً مشروعًا، أو قصاصًا عادلا، تجعل هذا العمل، وذاك القصاص أقرب ما يكونان إلى الظلم

وما أحرّ الحكمة التي قالها الرومان الأقدمون "العدل الصارم، ظلم صارم".

ولكي يعالج "محمد" عليه السلام دواعي الخوف ـ راح بدءًا من أبعد نقاطها، ومصدر انطلاقتها من قسوة النفس، ثم يتتبع الخوف في كل مظاهره، وكل دواعيه، حتى تهيئ رحمته الكبيرة حياة بلا مخاوف

فالقسوة عدو لدود للرحمة و"الرسول" ﷺ لهذا يواجهها مواجهة فاصلة ـ من أبسط مظاهرها، حتى أكبر هذه المظاهر خطرًا

تقول عائشة رضي الله عنها:

"قدم ناس من الأعراب على رسول الله ﷺ، فقالوا: أتُقبّلون صبيانكم؟؟ فقال: نعم. قالوا: لكننا والله ما نُقبل !

فقال رسول الله عليه السلام: أوَ أملك إن كان الله نزع من قلوبكم الرحمة ؟؟"

إن اللفتة الأبوية الحانية التي تعرب بها عن حب الأطفال، تمثل شيئًا جليلا

عند "محمد" ﷺ إنها ليست عملا من أعمال التسلية، أو اللهو إنها الرحمة تتخذ مظهرًا مهما يبد عابرًا فإن وراءه ذلك الرصيد الضخم الذى يريده "محمد" لجميع الناس من الرحمة، والعطف، والحنان.

وهو لهذا يدمغ الذين ينصرفون عن هذا المظهر العابر للرحمة بقسوة القلب، ويخبرهم أن الرحمة قد نزعت من قلوبهم

ومن مستوى أعلى من مستوى العلاقة بين الكبار، والأطفال أعنى حينما تكون العلاقة بين الناس بعضهم بعضًا، تتحول القبلة إلى مظاهر كثيرة متنوعة

فالكلمة الطيبة رحمة. والنظرة العاطفة رحمة. والهدية المتواضعة رحمة والصفح الجميل رحمة. وعيادة المريض رحمة بل وتشميت العاطس رحمة.

وكل هذه الأعمال التى تبدو بسيطة، يشكل "الرسول" ﷺ منها ومن نظائرها ـ نهجًا للسلوك الاجتماعى الذى تنمو فيه روابط الوُدّ وتختفى بالتالى أسباب التسلط، والقطيعة، والخوف.

أى أن "محمدًا" ﷺ يكافح دواعى خوف الناس من الناس. ويعاش دواعى الثقة والمودة بينهم، واتبع التى هى أحسن فى كل ما يقال، وما يُصنع

فالإنسان للإنسان أخ

"لا يظلمه، ولا يخذله، ولا يحقره.."

إن التعبيرات اليسيرة التى تعكس المودة والعطف، ذات أثر كبير فى إحياء الإخاء الإنسانى، ولهذا كان الرسول شديد الاهتمام بها، وكثير الاهتمام أيضًا بأن تصدر عن قلوب سليمة وعن نوايا طيبة صادقة.

يقول البراء بن عازب رضى الله عنه

"أمرنا رسول الله ﷺ بسبع أمرنا بعيادة المريض، واتباع الجنازة، وتشميت العاطس، وإبرار المقسم، ونصرة المظلوم، وإجابة الداعى،

وإفشاء السلام "

* * *

ولما كانت القسوة فى كثير من أحوالها ثمرة الغرور.. ولما كان الغرور مسئولا عن كثير من الإهانات التى تلحق ببعض الناس، لا لذنب جنوه.. ولكن بمجرد أنهم فى الكادر الاجتماعى يأخذون مكانهم فى الصفوف الخلفية

وقد كان وراء هذا الغرور غالبًا، الزهوُّ بالمال، أو الجاه، أو بالمنصب فقد ذهب "محمد" يُسوى بكل هذه المظاهر التراب؛ حتى يرعوى كل مغرور صلف، وحتى يطمئن الضعفاء والناس العاديون

ويضرب "محمد" ﷺ الأمثلة لقوم يتفكرون، فيقول

"احتجت الجنة والنار، فقالت النار: فىَّ الجبارون والمتكبرون
وقالت الجنة: فىَّ ضعفاء الناس ومساكينهم فقضى الله بينهما "
"قال للجنة: أنت رحمتى، أرحم بك من أشاء."
"وقال للنار: أنت عذابى أعذب بك من أشاء."

من هذا المثل البليغ نستطيع أن ندرك الطريقة التى يهدم بها "محمد" ﷺ كل عوامل التمزق النفسى بين الناس

فالجبارون والمتكبرون ليسوا فى مكان يُغبطون عليه، أو يؤهلهم للتغطرس على عباد الله إنهم فى النار الرذيلة التى تسربلوا بها، وحرَمتهم حبَّ الناس وصلوات قلوبهم ـ رذيلة الكبر، والتجبر، والجحود.

وهؤلاء الذين يبدون ضعفاء مساكين، لأنهم نفضوا عن أنفسهم كل مظاهر الخيلاء، والترف، والتجبر

هؤلاء هم الذين ظفروا بجنات الحب، والطمأنينة، والسلام ويستمر "الرسول" ﷺ فى نهنهة ضراوة المتجبرين، فيقول

"إن الرجل العظيم السمين، ليأتى يوم القيامة"
"لا يزن عند الله جناح بعوضة!!.."

والعظيم السمين هنا، كناية عن المتعاظم بجاهه، المتبجح بثرائه. ولنقرأ معاً هذا النبأ.

"مر رجل على النبى ﷺ فقال لرجل عنده جالس. ما رأيك فى هذا..؟ فأجاب. إنه من أشراف الناس وإنه والله لحرىٌ إن خطب أن يُنكح. وإن شفع أن يشفّع. وإن قال ان يسمع لقوله فسكت رسول الله ﷺ. ثم مرَّ رجل، فقال له "الرسول": ما رأيك فى هذا..؟ فقال. يا رسول الله هذا رجل من فقراء المسلمين، حَرىٌ إن خطب ألاَّ يُنكح، وإن شفع الا يُشفع، وإن قال ألاَّ يُسْمع لقوله.. فقال رسول الله عليه السلام: هذا خير من ملء الأرض من مثل ذاك..."

لقد أراد "الرسول" ﷺ على حسب هذا النبأ المروى أن يرفع فى وجه غرور الجاه.. شرفَ التواضع.

والرسول لم ينتقد الرجل الأول بمجرد كونه من أشراف الناس. بل لا بد أنه كان من المغرورين بمكانتهم الاجتماعية. ولقد جعل خيراً منهم الناس العاديين الذين يعملون فى صمت، ويحيون فى تواضع وسلام.

والإساءات قلما تقع بين ناس متباعدين. لأنها نتيجة الخُلطة الدائبة، والاحتكاك الاجتماعى. فأنت لا تختلف مع رجل لا تعرفه. إنما يكون الخلاف - حين يكون - بينك وبين صديق أو قريب..

لهذا يوصى "الرسول" ﷺ بالجار، ويُشدّد فى الوَصاة.

ذلك لأن الجيران تجمعهم خُلطة دائمة. وهذه الخُلطة تجعل احتمال الخلاف والنزاع بينهم كثيراً.. فيطغى القوى على الضعيف، ويتقطع بينهم ما أمر الله به أن

يُوصَل

وهنا يركز "محمد" في ذكاء عظيم على حق الجوار

"ما زال جبريل يوصيني بالجار، حتى ظننت أنه سيُوَرِّثه."

"والله لا يؤمن، والله لا يؤمن، والله لا يؤمن، قيل مَن هو يا رسول الله؟ قال: الذي لا يأمنُ جارُه بوائقه.."

هذا هو ما يريده "محمد" الإنسان الرحيم. ألاّ يخاف جار "ضعيف" جاره القوى

وهو لهذا، ينفى الإيمان نفيًا أكيدًا، عن كل جار يخافه جاره ولا يأمن عوائقه وشروره

يالَفِطْنة هذا النبى، ويالَرحمته الحانية..!!

إنه يعلم حاجة الناس إلى الأمن فى جوارهم فالجار مطلع على أسرار جاره، قادر على وضع الأذى فى طريقه.

وهنا يتقدم "محمد" ﷺ رافعًا لحقوق الجوار لواءً لا ينبغى لأحد أن يتحدَّاه، وإن فعل، فقد خلع ربقة الإيمان

"من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يُؤذ جاره"

"خير الأصحاب عند الله خيرهم لصاحبه، وخير الجيران عند الله، خيرهم لجاره.."

ولقد قيل له عليه السلام يومًا

"يا رسول الله إن فلانة تكثر من صلاتها، وصدقتها، وصيامها، غير أنها تؤذى جيرانها بلسانها، فقال: هى فى النار."

وإنه عليه السلام، ليشير فى رحمة دافقة إلى أهم حقوق الجار فيقول

"إذا استعان بك أعنته "
"وإذا استقرضك أقرضته.."
"وإذا افتقر عُدت عليه."
"وإذا أصابه خير هنأته.."
"وإذا أصابته مصيبة عزيته.."
"وإذا مات اتبعت جنازته.."
"ولا تستطل عليه بالبنيان، فتحجب عنه الريح إلا بإذنه ولا تؤذه بقتار ريح قدرك إلا أن تغرف له منها.. وإن اشتريت فاكهة فاهد له، فإن لم تفعل فأدخلها سراً، ولا يخرج بها ولدك ليغيظ بها ولده !!.."

أية إنسانية شحنت بها هذه الكلمات ..؟؟
وأي قلب كبير هذا الذي وهبه الله "محمداً" ﷺ ؟!!
وما يتطلبه الجوار من رعاية، تتطلب مثله القرابة، في الوقت ذاته، وللسبب نفسه
وهنا يوصي "الرسول" بالرَّحِم

"من كان يؤمن بالله واليوم الآخر، فليصل رحمه، ويضرب عليه السلام مثلاً رائعًا لأهمية الرحم وجلالها فيقول:
"إن الله تعالى خلق الخلق، حتى إذا فرغ منهم قامت الرَّحِم فقالت: هذا مقام العائذ بك من القطيعة قال الله: نعم أما ترضين أن أصل من وصلك، واقطع من قطعك؟ قالت: بلى قال: فذلك لك."

* * *

واليتيم، والأرملة، والمسكين .. أكثر الناس خوفاً من المصير، وأكثرهم حاجة إلى الحنان، والأمن، والرحمة

وهنا يتقدم "محمد" ﷺ فيبسط عليهم جناحه:

"أنا وكافل اليتم في الجنة كهاتين - مشيرًا بأصبعه السبابة والوسطى.."

"إن أحب البُيوت إلى الله بيت فيه يتيم مُكْرَم"

"والذى بعثنى بالحق، لا يعذب الله يوم القيامة من رحم اليتيم، والانَ له فى الكلام، ورحم يُتمَه وضعفه.."

"الساعى على الأرملة، والمسكين، كالمجاهد فى سبيل الله، وكالذى يقوم الليل، ويصوم النهار.."

* * *

إن "محمدًا" ﷺ يتعقب قسوة القلب فى كل مجالاتها، لأنه يدرك مسئوليتها عن الخوف الذى يسلطه بعض الناس على بعض، وعن السوء الذى يلحقه بعض الناس ببعض

وهو إذ يوصى بالرحم خيرًا، فلأنه يعلم ما يُلحقه الهجر، والقطيعة بها من فزع وأسًى. ولهذا صورها لنا وَجِلةً مُفزعة، آخذة بعرش الله تقول فى ضراعة:

"هذا مقام العائذ بك من القطيعة"

و "محمد" حريص على أن يحرر الأحياء من مخاوفهم، ويَهدم دواعى الخوف فى كل مظانه.

وإنه ليتعقب تلك المظان واحدة تِلْوَ الأخرى، على النسق الذى رأينا

وبعبارة واحدة ـ فمحمد ﷺ الذى أمدته رحمته الواقية بتحرير الناس من الخوف، يعلن حملة واسعة النطاق ضد الشرور الضارية فى الحياة الإنسانية.

فتلك الشرور هى ما يخيف الناس. وإنه لن يغادر منها صغيرة ولا كبيرة إلا يدحضها، ويحذر منها، ويُطاردها

طارد القسوة.. طارد القطيعة.. طارد الصلف والغرور.. كما رأيت فى أحاديثه السالفة..

ثم هو يطارد الغضب قائلا:

"شركم سريع الغضب، بطىء الفىء. وخيركم بطىء الغضب، سريع الفىء."

وحين يسأل أحد أصحابه عن العمل الذى يدخله الجنة، يجيبه:

"لا تغضب، ولك الجنة.."

ويقول:

"ليس الشديد بالصُّرَعَة، إنما الشديد من يملك نفسه عند الغضب.."

"ألا أخبركم بمن تحرُم عليه النار..؟ تحرُمُ على كل هَيِّن لَيِّن، سَهْل."

ويرسم مشهدًا من المشاهد الماتعة التى تبهر الأبصار بحماها وتُثرى الأرواح بدلالتها فيقول:

"إذا جمع الله الخلائق، نادى مناد: أين أهل الفضل؟.. فيقوم ناس وهم يسير، فينطلقون سراعا إلى الجنة، فتتلقاهم الملائكة، فيقولون: إنا نراكم سراعًا إلى الجنة، فمن أنتم ؟ فيقولون: نحن أهل الفضل. فيقولون: وما فضلُكم، فيقولون: كُنا إذا ظُلمنا صبرنا، وإذا أُسىء إلينا حلمنا. فيقال لهم: ادخلوا الجنة فنعم أجر العاملين.."

ويطارد الحسد والبغضاء فيقول:

"لا تحاسدوا، ولا تدابَرُوا، ولا تبغَضوا، وكونوا عباد الله إخوانا "

ويطرد الفصول في شتى صوره:

"من اطّلع في بيت قوم بغير إذنهم، فقد حلّ لهم أن يفقئوا عينه "
"من استمع إلى حديث قوم، وهم له كارهون
صُبّ في أذنه الآنك - أي الرصاص المُذاب - يوم القيامة "

وينهى عن السباب والشتم.

"المُستبّان شيطانان، يتهاتران ويتكاذبان. "
"إن من أكبر الكبائر أن يلعن الرجل والديه..
قيل يا رسول الله، كيف يلعن الرجل والديه..؟
قال: يَسُبُّ أبا الرجل، فيسبُّ أباه، ويسبّ أمّه، فيسبُّ أمّه.."

وتروى عائشة رضى الله عنها هذا النبأ الجزل فتقول:

"مرّ النبي ﷺ بأبي بكر، وهو يلعن بعض خدمه. فالتفت النبى إليه، وقال لعّانين، وصدّيقين؟! كلا ورب الكعبة. فسرّح أبو بكر خدمه تكفيرا عن شتمه لهم، وجاء إلى النبى عليه السلام وقال: لا أعود."

وينهى "الرسول" ﷺ عن ترويع الإنسان أخاه ولو بأتفه مظاهر الترويع وأظرفها.

"لا يُشِرْ أحدكم إلى أخيه بالسلاح، فإنه لا يدري لعلّ الشيطان ينزع في يده - أي يرمي - فيقع في حفرة من النار "

وأتلو هذا الحديث أيضا

"من أشار إلى أخيه بحديدة، فإن الملائكة تلعنه حتى ينتهي وإن كان أخاه لأبيه، وأمه.."

ويطارد النميمة، والغيبة، والبهتان.

"شرار عباد الله، المشاءون بالنميمة، المفرقون بين الأحبة، الملتمسون للبرآء العيب.."

"الغيبة والنميمة يحتّان الإيمان، كما يعضدُ الراعي الشجرة.."

ويسأل أصحابه يومًا

"أتدرون من المفلس.؟ قالوا، المفلس فينا من لا درهم له ولا متاع فقال عليه الصلاة والسلام: المفلس من أمتي من يأتي يوم القيامة بصلاة وصيام وزكاة، ويأتي وقد شتم هذا وقذف هذا وأكل مال هذا. وسفك دم هذا وضرب هذا . فيعطى هذا من حسناته، وهذا من حسناته، فإن فنيت حسناته قبل أن يقضي ما عليه، أخذ من خطاياهم فطرحت عليه.".

* * *

إن "محمدًا" ﷺ يحمي أعراض الناس، ويدفع عنها كل لسان ثرثار وفي خطبة الوداع، يجلجل "محمد" بين الملأ قائلا

"إن دماءكم، وأموالكم، وأعراضكم، حرام عليكم، كحرمة يومكم هذا..في شهركم هذا. في بلدكم هذا.. ألا هل بلغت...؟؟؟.."

"من ردّ عن عرض أخيه، ردّ الله عن وجهه النار يوم القيامة."

أية رحمة ورأفة كرحمة هذا "الرسول" الإنسان العظيم، الذي لم يترك شيئًا فيه

يمكن أن يكون مصدر ألم للإنسان إلا دهمه، ونهى عنه

هذا الذى يجعل لسيرة الإنسان من القدسية والحرمة مثل ما لبيت الله الحرام، الذى هو عند "محمد"، وفى رسالته، قمة القداسة، والتوقير !!

يسأل أصحابه يومًا ليعلمهم

"أتدرون ما الغيبة .؟؟ قالوا الله، ورسوله أعلم.. قال. ذكرك أخاك بما يكره. قيل.. أرأيت إن كان فى أخى ما أقول؟ قال عليه الصلاة والسلام: إن كان فيه ما تقول، فقد اغتبته. وإن لم يكن فيه ما تقول، فقد بَهتّه".

ترى، هل وقفت رحمة "محمد" عند الإنسان وحده ؟؟ كلا ولقد سعت إلى كل كائن حى، لتدفع عنه العوادى والشرور.

فهذه الكائنات المهيضة من حيوان، وطير، بل حشرة ينهض القلب الكبير بحقها فى الرحمة وحقها فى الرفق، وحقها فى الميلاد.

فالحيوان جدير بالرحمة بل لعله أحق بها، وأكثر احتياجا إليها.. هذا الذى لا يملك أن يشكو، ويسترجع، ويقول ارحمكم..!

يقول عليه السلام

"عذبت امرأة فى هرة حبستها حتى ماتت، لا هى أطعمتها وسقتها.. ولا هى تركتها تأكل من خشاش الأرض !!"

ومن فرط إحساسه عليه السلام بحاجة الحيوان إلى الرحمة، كان كأنه يستمع إلى شكاة الحيوان المعنَّى، وكأنما هو نداء النجدة لكل طالب رحمة، حتى لو يكون حيوانًا.

يقول عبد الله بن جعفر:

"دخل رسول الله ﷺ بستانًا لرجل من الأنصار، فإذا فيه جمل: فما إن رأى النبىّ حتى حنّ وذَرَفَتْ عيناه؛ فأتاه رسول الله ﷺ فمسح ذفراه فسكن. وقال "الرسول": مَن ربُّ هذا الجمل..؟ فقال فتى من الأنصار: هو لى يا رسول الله. فقال الرسول عليه السلام: ألا تتقى الله فى هذه البهيمة التى ملّكك الله إياها؛ فإنه شكا إلىّ أنك تجيعه وتدئبه..!!"

وحتى إساءة الحيوان، أو الحشرات، ينبغى أن تقابل بالرحمة وتعالج بالرفق ويضرب "محمد" ﷺ لهذا مثلا جميلا فيقول

"قرصتْ نملة نبيًا من الأنبياء، فأمر بقرية النمل فأحرقت فأوحى الله تعالى إليه. أنْ قرصتك نملة.. أحرقت أمة من الأمم تُسبح. ؟!!"

انظروا كيف تتألق إنسانية "محمد" وتسمو، فيسمي جماعة النمل "أمّة" وأمة تهذبها غريزتها إلى أن لها ربًا خلاقًا، فهى تسبح بحمده ؟!

والذى يؤاخذه الله فى هذه القصة على تخليه عن الرحمة تجاه حفنة من النمل، ليس فردًا عاديًا.. بل هو نبى من الأنبياء.

إن الصورة على بساطتها تتضمن أروع نماذج الرحمة على الإطلاق وتكشف عن نفسية "محمد" العظيمة، كما لا يكشف شيء مثلها

حفنة من النمل، لا يدرك الناس لها، ولا لآلاف مثلها قدرًا ـ أىّ قدر ترتفع فى عين "محمد" إلى الحد الذى يتصور لها عنده قداسة وحُرمة وتقدس حقوقها إلى الحد الذى يُؤاخذ عنده نبى من الأنبياء، لأنه اعتدى عليها وتجنى !!

بل إنه حين يأمر بقتل حشرة سامة بفترس الناس بلدغها يجعل المهارة فى قتلها مرادفة للرحمة بها، ويرجو الثواب من ربه لمن يجهز عليها فى غير إيلام لها

انظروا:

"من قتل وزغة فى أول ضربة، كتبت له مائة حسنة، وفى الثانية دون ذلك، وفى الثالثة دون ذلك".

إن الوزغة حشرة سامة كالأفعى والخلاص من شرها ضرورى ولكن حتى هنا لا ينسى "محمد" فينشئ من مثوبة الله سبحانه جائزة لمن يجهز على تلك الحشرات القاتلة، دون أن يسبب لها ألمًا - أى ألم..!!

أجل - جائزة لمن يصيب الهدف دون أن ينبعث منه أنين !!

ذلك أن الرفق عند "محمد" هو جوهر الحياة وزينتها.

يقول عليه السلام:

"إن الرفق ما كان فى شىء إلا زانه ولا نزع من شىء إلا شانه".

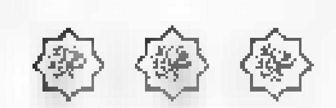
* * *

هذه ومضات من رحمة "محمد" ﷺ..

رحمته بالناس

ورحمته بالأحياء جميعًا.

رحمة الإنسان الذى أرسله الله رحمةً للعالمين.



الفصل الثاني

.. والعدل شريعته



ذات يوم تقدم منه أعرابى فى غلظة، وسأله مزيدًا من العطاء، وقال اعدل يا محمد .

والطمأنينة التى دفعت الأعرابى إلى هذا الموقف المسرف فى الجرأة هذه الطمأنينة وحدها، تصور عدل "محمد" أصدق تصوير

فما كان الأعرابى قادرًا على أن يقول مقالته تلك، لو كان "محمد" قد أقام بينه وبين الناس سورًا من التعاظم، والكبرياء، وبث فى نفوسهم الخشية منه والرهبوت.!!

لكن "محمدًا" ﷺ، حطم كل معالم التميز بينه وبين الناس

وحين دخل عليه رجل غريب، يختلج، بل يرتجف من هيبته، استدناه، وربت على كتفه فى حنان، وفرط تواضع، وقال له عبارته المشهورة

"هَوِّن عليك فإن أمى كانت تأكل القديد بمكة"

أجل ـ من هنا يبدأ الفهم الصحيح لعدل "محمد" ﷺ

من هنا.. من إلغائه كل مظاهر التمايز بينه وبين الناس .

فالرسول الذى اصطفاه الله واختاره ولدى هيأه تفوقه الأخلاقى والعقلى والروحى لأن يكون أستاذ أمته ورائدها.. وهيأه اصطفاء الله له لأن يكون الإمام الذى يُحب، ويُطاع "محمد" ومعه كل هذه المبررات، يرفض كل مبرر، وينحى كل تمايز، ولا يفتأ يتلو على الناس هذه الآية الكريمة

﴿ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ ﴾ . !

إنه يعلم أن التمايز أشد مظاهر الظلم وقاحة.. فالذي يزعم لنفسه مكانًا خاصًا فوق الناس، إنما ينتحل ما ليس له بحق، وإنه يتعبدهم لشهوة الصلف، والغرور الكذب.. ثم هو قبل هذا، وبعد هذا يضع نفسه حيث تعسه نفسه، وحيث يقوده هواه إلى ارتكاب كل الآثام الباغية التي هي إفراز حتمي لإحساسه الخاطئ بالتميز، والاستعلاء، والهيمنة.

و"محمد" الإنسان يعلم هذا، وليس في طبعه إلا هيام الشديد بالعدل، والإيمان به كفضيلة، وكضرورة.

من أجل هذا طهر نفسه تطهيرًا من كل شعور بالتعالي.. وتنازل في سن عظيم عن كل امتيازات تفوقه العظيم..

في سلوكه، كرسول وكقائد، ينبذ التمايز ويرفضه..

يأتيه أصحابه قبل غزوة أحد.. يقولون له: إن العدو في طريقه إلينا يريد أن يقضي علينا..

فيقول لهم: إني أرى ألا نخرج لقتال..

يقولون: ونحن نرى أن نخرج ونقاتل..

فيستمهلهم بضع دقائق.. يغيب عنهم فيها، ثم يعود إليهم، وقد ارتدى لباس المعركة احترامًا لمشيئتهم واحترامًا لحقهم..

ويسأله يومًا أعرابي في بداوة جافة:

يا "محمد" هل هذا المال مال الله، أم مال أبيك..؟؟

ويتشزره عمر بن الخطاب بسيفه يريد أن يجهز عليه، فيرده "الرسول" ﷺ قائلا:

"دعه يا عمر.. إن لصاحب الحق مقالا" !!

وفي سلوكه كصديق يرفض التمايز أيضاً.. ففي بعض أسفاره يتهيأ أصحابه لإعداد الطعام، ويتقاسمون العمل فيما بينهم، فيقول "محمد" عليه صلاة الله وسلامه.

"وعليَّ جمع الحطب.."

"يقولون: يا رسول الله، إنا نكفيك هذا.."

"فيجيبهم: قد علمت أنكم تكفونني إياه ولكني أكره أن أتميز عليكم.."

لقد جعل نفسه واحداً من الناس.

وإذن فالقانون الذي يحكم الناس يحكمه. والواجبات التي يُطلب إلى الناس القيام بها، عليه أن يقوم مثلهم بها، بل أكثر مما يقوم بها الآخرون، لأنه في مكان التأسِّي والقدوة لا في مكان التدلل والحظوة

ونعود إلى النبأ الأول الذي استهللنا به هذا الفصل من الكتاب. نبأ الأعرابي الذي قال له اعدل يا محمد.

لقد ابتسم الرسول عليه الصلاة والسلام ابتسامة المتهلل، ولم يزد على أن قال للرجل:

"ويحك.. فمن يعدلُ إن لم أعدل"..؟!

و"محمد" ﷺ حين يقول هذا، لا يقوله متباهيًا، ولا مختالا بل مُذكرًا الناس بحقهم في أن يتوقعوا منه أقصى مراتب العدالة وفي أن يحاسبوه عليها إذ عنَّ لهم ما يقتضي الحساب.

فإذا لم يقم "محمد" بالعدل كاملة، فمن إذن يقوم؟

إن واجبه أن يفعل

وقبل الواجب، هناك طبيعته الخيرة النقية، تجرى الفضائل الكبرى خلالها، كما يجرى الدم النقى فى العروق اللطيفة..

فإذا لم يعدل "محمد" ﷺ ـ كل العدل ـ فقد أخلّ بواجبه.

وإذا لم يعدل ـ كل العدل ـ فقد جافى طبيعته

و"محمد" ﷺ ليس الإنسان الذى يفرط فى تبعاته

و"محمد" ﷺ ليس الإنسان الذى يجافى فطرته، ويلوى طبيعته

هذا هو معنى قوله عليه الصلاة وأبهى السلام

"فمن يعدل.. إن لم أعدل.."

* * *

و"محمد" حين تخلى عن التمايز لم يفعل ذلك إشباعاً لفضيلة التواضع ولو أنه فعل ذلك من أجل ذلك، لكان عملا حميداً وجليلا

ولكن "محمداً" ﷺ إنسان تحركه بواعث أخرى تنهض فى السمو والجلال

فهو يرفض التميز تحققاً للعدل.

وهو يعدل، لأن سلوكه العادل، تحقيق لذاته، وفطرته

وذاته وفطرته، لا تتكلفان المساواة وطلب التكافؤ

بل هما مترعتان بمشاعر هذه المساواة وحقيقتها

ومن هنا فمحمد ﷺ لا يرى نفسه واحداً من الناس ـ تواضعاً ـ بل هو واحد من الناس ـ حقيقة ـ يجرى عليه ما يجرى عليهم

وإذا كان الله يعاقب الناس إذا ظلموا!

فمحمد سينزل به العقاب إذ ظلم، بالله، ما أروع هذا !!

انظروا

"ذات يوم يرسل خادمًا فى حاجة قريبة، فيغيب نصف اليوم أو

قراءة ذلك.."

"ويأخذ الرسول ﷺ، ما يأخذ كرام البشر من الغيظ، كريم ويظن من يراه أنه سيبرل بالغلام حين يعود عقابًا أليمًا."

"وحين يعود الغلام، يلوح "الرسول" في وجهه بالسواك وهو يقول: لولا خوف القصاص من الله لأوجعتك ضربًا بهذا السواك."

أرأيتم..؟؟

إن "السواك" عود صغير في حجم فرشاة الأسنان ويؤدي وظيفتها، ولو ضرب به، رضيع مئة ضربة ما آلمه ولا أوجعه، فضلا عن فتى كبير

ومع هذا؛ فالرسول يكظم غيظه، ويرفض أن يضرب الغلام بهذا السواك

لماذا ؟

خوفًا من قصاص الله.

ألم أقل لكم إن استمساك "محمد" ﷺ بالعدل، لم يكن تباهيًا بالتواضع ولا استمتاعًا بلذة العدل، وإنما توقيرًا للعدالة نفسها، وإدراكًا لحقيقة وضعه بين الناس كواحد منهم. واحد مثلهم، عليه أن يعدل كما أن على الناس أن يعدلوا، لأن العدل ميزان الحياة، وأي انحراف بهذا الميزان يُلحق بالحياة كلها أذى، ووبالا

بل عليه أن يستوصي بالعدل أكثر مما يستوصي الناس؛ لأنه هدا خُلق وهذا بُعث.

ويتصور "محمد" العدل، تصورًا فذًا، ويرفعه أعلى مكان حين لا يجعله فضيلة من فضائل البشر وحدهم، بل قبل هذا خُلقًا من أخلاق الله سبحانه، وبهجًا ألزمه الله نفسه

"يقول الله تعالى في حديث قدسي

"يا عبادي: إني حرّمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرمًا فلا تظالموا."

وحين يتصور "محمد" ﷺ أن ربه الفعال لما يشاء قد حرم الظلم على نفسه فإنه لا بد ناظر إلى الظلم كخطيئة لا تعادلها خطيئة أخرى بين كل خطايا البشر ومن ثم ذهب في التحذير منه مذهبًا بليغًا، فيقول

"اتقوا الظلم، فإن الظلم ظلمات يوم "القيامة"

"اتق دعوة المظلوم، فإنه ليس بينها وبين الله حجاب"

"دعوة المظلوم يرفعها الله فوق الغمام، ويفتح لها أبواب السماء، ويقول الرب: وعزتي لأنصرنك ولو بعد حين"

اتقوا دعوة المظلوم فإنها تصعد إلى السماء كأنها شرارة "

والظلم عند "محمد" ﷺ يأكل فضائل الظالم، ويرعى حسناته كما تُرعى النار الهشيم

ولما كان يوم القيامة هو مظهر الجزاء والقصاص، فقد ناط به "الرسول" ﷺ مصير الظالم

ونحن من عندنا نقول إن لكل إنسان قيامته وإن قانون القصاص لقائم وبالد، ويوم القصاص منك، تمثّل يوم قيامتك فلا تقولن ظالم هيهات يوم القيامة، فإنا منه قريب جدُّ قريب

يقول محمد عليه السلام محذرًا الظالم من يوم القصاص

"اتقوا الظلم ما استطعتم، فإن العبد يجيء بالحسنات يوم القيامة يرى أنها ستنجيه، فما يزال عبد يقول يا رب ظلمني عبدك مظلمة فيقول الله: امحوا من حسناته وما يزال كذلك حتى ما

يبقى له حسنة ."

وقصاص الظلم محتوم ومباغت.

"إن الله ليملي للظالم ، فإذا أخذه لم يُفْلِت. "

* * *

ذات يوم صعد "الرسول" ﷺ المنبر، وراح يخاطب الناس قائلا لهم:

"من كنتُ أخذت له مالاً ، فهذا مالي ، فليأخذ منه ، ومن كنت جلدت له ظهرًا ، فهذا ظهري، فليقتد منه "

إن الإنسان العظيم يعلم أنه لم يأخذ مال أحد، لا ولا جلد ظهر أحد ولكنه التحري المطلق للعدل، والرهبة البالغة من الظلم. وهو لهذا يوصى الناس فيقول:

"مَن كان عنده مظلمة لأخيه من عرض أو من شيء ، فليتحلله منه اليوم من قبل ألا يكون دينار ولا درهم. إن لم تكن له حسنات ، أخذ من سيئات صاحبه فحمل عليه.."

ولا شيء يكشف عن إيمان "محمد" بالعدل، ومقاومته الظلم مثل حديثه المضيء الذي يقول:

"انصر أخاك ، ظالمًا أو مظلومًا ، قال رجل: يا رسول الله ، أفرأيت إن كان ظالمًا ، كيف أنصره.؟؟ قال: تمنعه عن ظلمه ، فإن ذلك نصره.."

لقد بلغ من بشاعة الظلم عند "محمد" أن الظالم نفسه، يكون ضحية ظلمه، إنه قد أنزل الظلم بنفسه، في ذات الوقت الذي أنزل الظلم بغيره.

وهو هذا، مظلوم في صورة ظالم.. تعيسٌ في ثوب جبّار!

ومقاومته، ومنعه عن الظلم، فوز له وانتصار، أكثر مما هي زجر وعقاب

ثم انظروا بهاء الإنسانية وأنفها في ضمير "محمد" ﷺ وهو يقول "انصر أخاك ظالمًا.

لو قال "قاوم أخاك ظالمًا، وانصره مظلومًا" لكان القول على حسب تفكيرنا أقرب إلى السداد

ولكنَّ السداد في كلمات "محمد" ﷺ من طراز آخر، يعرف هو أكثر من غيره كيف يُضَمِّنه كلمته الناصعة البهاء

فمدافعة الظلم، حتى حين تتخذ هذه المدافعة شكلا جماعيًا أو ثوريًا. ليست عملا من أعمال التقويض، بل هي من أعمال البناء والانتصار للحياة

ولسنا نعرف رذيلة رفع "محمد" مقاومتها إلى هذه المكانة، مثل رذيلة الظلم إنه أعطى مقاومة الظلم إيجابية غامرة، وكساها بهاء ناضرًا، حين جاوز بها مستواها وجعلها ظفرًا وانتصارًا !!

* * *

والظلم تتفاوت أخطاره، بتفاوت مصدره

وشرُّ مصادر الظلم جبار متسلط، وحاكم باغ..

وهُنا يواجه "محمد" ﷺ الظلم في عرينه الخطير.

وسيلته هنا، ليس استدرار عطف الحاكم الظالم، بل حثُّ المظلوم على المقاومة وحث الناس جميعًا على دحض الظلم ومكافحته

هنا يقول "محمد" ﷺ

"إذا رأيتم الظالم، ولم تأخذوا على يديه، يوشك أن يعمكم الله بعذاب."

ويقول

"إذا عجزت أمتي عن أن تقول للظالم: يا ظالم، فقد تُودِّع منها."

ويسأله أحد أصحابه يومًا عن أفضل الجهاد، فيجيبه عليه السلام

"كلمة حق عند سلطان جائر."

ويطلب الرسول عليه السلام مقاطعة الحاكم الجائر، كوسيلة ناجحة لمقاومة ظلمه وجوره، فيقول:

"سيكون بعدي أمراء يظلمون ويكذبون. فمن صدّقهم بكذبهم، وأعانهم على ظلمهم، فليس مني، ولا أنا منه. ومن لم يصدقهم بكذبهم، ولم يمالئهم على ظلمهم فهو مني وأنا منه"

ويريد "الرسول" ﷺ هذا المعنى تبيانًا وإيضاحًا فيقول

"يكون أمراء تغشاهم غواشٍ أو حواش من الناس. يكذبون ويظلمون، فمن دخل عليهم فصدقهم بكذبهم، وأعانهم على ظلمهم، فليس مني ولست منه. ومن لم يدخل عليهم، ولم يصدقهم بكذبهم، ولم يعنهم على ظلمهم فهو مني وأنا منه.

فهنا يشير "الرسول" ﷺ إلى حاشية الظالم بقوله "تغشاهم غواش، أو حواش من الناس يكذبون ويظلمون"

وهو عليه السلام يدعو إلى مقاطعة الظالم وحاشيته، حتى يختاروا بظلمهم يقول: "من دخل عليهم فليس مني ولا أنا منه".

انظروا عبارة "من دخل عليهم"

إن محمدًا ﷺ يريد أن يعزلهم عن المجتمع، حتى يحسُّوا بالمذلة والهوان، فيرجعوا عن ظلمهم أو يبوءوا بآثام بغيهم..

و "محمد" وهو يُلم بالحاشية فى مقام الحديث عن الحاكم الظالم، يعنى بالكشف عن الدور الخطير الذى تلعبه الحاشية فى دعم الظلم، أو دعم العدل فى إصلاح الحاكم أو إفساده.

فيقول عليه السلام

"ما من وال إلا وله بطانتان بطانة تأمره بالمعروف وتنهاه عن المنكر، وبطانة لا تألوه خبالا - أى لا تدَّخر جهدًا فى إفساده - فمن وُقِىَ شرَّها، فقد وُقِى."

ويقول أيضًا:

"إذا أراد الله بالأمير خيرًا، جعل له وزير صدق إن نسى ذَكَّره، وإن ذكر أعانه. وإذا أراد الله به غير ذلك جعل له وزير سوء إن نسى لم يذكِّره، وإن ذكَر لم يعنه".

* * *

والظلم يتخذ أشكالا شتى..

فهناك ظلم بالفعل وهناك ظلم بالقول وهناك ظلم بالشعور

قد نظلم الآخرين بأفعال نأتيها..

وقد نظلمهم بكلمات نقولها.

وقد نظلمهم بمجرد مشاعر كريهة تنطوى عليها نفسك

و "محمد" عليه الصلاة والسلام، يحيط بهذه الأشكال جميعًا فى ذكاء عظيم، وفى ولاء للعدل أعظم.

فلننظر الآن كيف يكافح الظلم كله

الظلم الذى يتمثل فى حركة

والظلم الذي يتمثل في كلمة

والظلم الذي يتمثل في حاجة نفس

* * *

أما الظلم بالنفس، فيسطم كل عدوان على الناس في أنفسهم وفي أعراضهم.. وفي أموالهم وكل حقوقهم

أما الأنفس، فيحرم كل عدوان عليها من سفك الدم إلى لطمة الوجه

يقول عليه السلام

"أولُ ما يقضى بين الناس يوم القيامة في الدماء"

ويضع قتل النفس مع الشرك بالله جنبًا إلى جنب.. فينهى عن "السبع الموبقات" ويجعل منها قتل النفس بغير حق

ويبلغ "محمد" ﷺ أوج الإيمان بالنفس الإنسانية حين يقول في كلمات شاهقة

"لَزوال الدنيا جميعا، أهون على الله من دمٍ سُفك بغير حق."

لو لم يكن لـ"محمد" ﷺ سوى هذا الحديث، لكان كافيًا للدلالة على ما يكنه هذا الإنسان العظيم من ولاء للحياة منقطع النظير !! ومن تقدير حرمة الإنسان، يفوق كل تقدير..!

ذات يوم عثر أهل المدينة على جثة قتيل لم يعرف قاتله، فجمع "الرسول" ﷺ الناس وصعد المنبر غاضبًا وقال

"يُقتل قتيل وأنا فيكم، ولا يُعلم من قتله ؟ لو اجتمع أهل السماء والأرض على قتل امرئ لعذبهم الله، ولكبّهم جميعًا على وجوههم في النار"

ويقول عليه السلام

"يجيء المقتول آخذًا قاتله، وأوداجه تشخب دمًا، يقول: يا رب سلْ هذا، فيمَ قتلني؟؟"

بل اقرءوا هذا الحديث:

"لا يقفنّ أحدكم موقفًا يُقتل فيه رجل ظلمًا، فإن اللعنة تنزل على كل من حضره حين لم يدفعوا عنه، ولا يقفنّ أحدكم موقفًا يُضربُ فيه رجل ظلمًا فإن اللعنة تنزل على كل من حضره حين لم يدافعوا عنه.."

* * *

بل إن "محمدًا" ﷺ ليرى مجرد التهويم بالسلاح، أو بآلة حادة مؤذية عملاً يستوجب العذاب واللعنة.

يقول عليه السلام

"لا يشيرنّ أحدكم إلى أخيه بالسلاح، فإنه لا يدري لعلّ الشيطان ينزع في يده. أي يدفعه إلى الجريمة.."

ويقول

"من أشار إلى أخيه بحديدة فإن الملائكة تلعنه، حتى ينتهي"

ويُمعن في استبعاد كل أسباب العدوان فيقول:

"إذا مرّ أحدكم بمجلس أو سوق، وفي يده نبل، فليأخذ بنصالها لا يخدش بها أحدًا..!!"

* * *

ويصون "محمد" الأعراض بالعزم الذي يصون به حُرمة الأنفس والحياة

و"لمحمد" في هذا، ما يغني عن كل استطراد

ذات يوم أقبل عليه سائل يسأله في صراحة العربي وجرأته طامعًا في أن

يجد للزنا رخصة فهو فحل لا يستطيع أن يُغالب في نفسه شبقها إلى النساء !

رغبة عجيبة حقًا ـ لا سيّما حين يتقدم بها صاحبها إلى رسول. !

ولكن "محمدًا" ﷺ يكشف في هذه الواقعة عن فلسفته تجاه خطيئة الزنا

بل تجاه الخطايا كلها فإذا خطيئة الزنا جُرْم لأنها عُدوان لأنها ظُلم

لقد استدنى الرجل منه، وربت على كتفه وقال والضياء يكسو وجهه، مُلقيًا

على الرجل سؤالا

"أتحب الزنا لأمك.."

"قال الرجل: لا."

"أتحبه لزوجك؟؟."

"قال الرجل: لا."

"أتحبه لأختك؟؟."

"قال الرجل: لا.."

"أتحبه لبنتك؟؟.."

"قال الرجل: لا"

"فقال الرسول: كذلك الناس .. يا أخا العرب .. لا يحبونه

لأمهاتهم، ولا لزوجاتهم، ولا لأخواتهم، ولا لبناتهم. !!"

من كان يعرف في تلقين الأدب، وبثّ الفضيلة، طريقة أمثل، وأروع من

هذه، فليأتنا بها. !!

قال الرجل. وقد بهره الحجَج، وأقنعه المنطق إذن فادع الله لي كي يحبب إلي

العمة، ويكره إليَّ المسوق. !!

فوضع الرسول ﷺ كفه الحانية على صدره ودعا له. يقول الرجل "والله ما إن قال الرسول ما قال، حتى انصرفت عنه ولا شيء أبغض إلى نفسي من الزنا !"

أجل كل عدوان عليك، أو على أحد ممن معك، لا ترضاه لنفسك، ولا ترضاه لهم. وجب عليك أن تتجنب إيقاعه بغيرك وهذا هو الميزان، والمعيار

وللمال في حياة الناس أهمية بالغة.

والحاجة إليه، والتزاحم عليه ـ كثيرًا ما يثيران الخصومة، والحقد والعدوان

وهنا يقف "محمد" ﷺ حارسًا العدل من كل افتيات يفضي إليه التزاحم والمنافسة والطمع ـ ويقف عند الحقوق المالية وقفه بارة طويلة.

تأملوا هذا الحديث جيدًا

"لتؤدن الحقوق إلى أهلها يوم القيامة حتى يُقاد للشاة الجلحاء من الشاة القرناء."

أي حرص على الناس يمكن أن نعثر عليه في توكيد صارم أروع من هذا التعبير

ولنتأمل هذا الحديث أيضًا:

"من ظلم قيد شبر من الأرض طُوِّقه من سبع أرضين."

وكل حيلة لسلب الحقوق، عمل غير صالح

ودربة اللسان، وذلاقة الحجة، إذ توسل بهما امرؤ لأخذ ما ليس له بحق. فقد باء بإثم كبير

يقول الرسول ﷺ محذرًا أصحابه

"إنما أنا بشر وإنكم تختصمون إليّ، ولعلّ بعضكم أن يكون ألحنَ بحجته من بعض فأقضيَ له بنحو ما أسمع. فمن قضيت له بحق أخيه فإنما أقطع له قطعة من النار.."

ويعلن "محمد" أن اللقمة الحرام تفسد العبادة نفسها، وترد الأعمال الصالحة ترابًا في تراب.

إنه يقول لسعد بن أبي وقاص:

"يا سعد: أطب مطعمك، تكن مستجاب الدعوة، والذي نفس محمد بيده: إن العبد ليقذف اللقمة الحرام في جوفه، ما يُتقبل منه عمل أربعين يومًا. وأيما عبد نبت لحمه من سحت فالنار أولى به".

ويقول عليه السلام:

"إن الله طيب لا يقبل إلا طيبًا.. وإن الله أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين، فقال: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُواْ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعۡمَلُواْ صَٰلِحًاۖ إِنِّي بِمَا تَعۡمَلُونَ عَلِيمٞ ﴾ وقال: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقۡنَٰكُمۡ ﴾. ثم ذكر الرجل يطيل السفر، أشعث أغبر، يمد يديه إلى السماء، يا رب، يا رب.. ومطعمه حرام، ومشربه حرام، وملبسه حرام، وغُذِيَ بالحرام! فأنَّى يستجاب لذلك؟؟"

ويضع الأمانة، وعفة الطعمة في موضع تتضاءل دونه الدنيا بما فيها.. فيقول عليه الصلاة والسلام:

"أربع إذا كُنَّ فيك فلا عليك ما فاتك من الدنيا: حفظ أمانة، وصدق حديث.. وحُسْن خليقة وعفَّة في طُعمة.."

ويزيل الغشوة عن أعين أولئك الذين يغبطون المحوصين في أموال الناس على ما هم فيه من ثراء باطل، ونعمة كاذبة، فيقول عليه السلام

"لا يُعْجِبَنَّكَ رحْبُ الذراعين بالدم - أي القاتل - ولا جامع المال من غير حِلِّه، فإنه إن تصدَّقَ به لم يُقبل منه، وما بقى كان زاده إلى النار"

* * *

"لأن يأخذ أحدكم تُرابًا، فيجعله في فيه خير له من أن يجعل في فيه ما حرَّم الله عليه".

وقد يتصور الناس أن الظلم المتمثل في اغتصاب الأموال، مقصور على أموال الأفراد.

كلا، وإن أموال الأمة لأشدُّ عند "محمد" حرمة، وإنه ليجلجل بالنذير في وجوه الذين يعيثون في هذه الأموال، يسرقونها ويختلسونها.

إن كل الصاعات والمصائر لتعجز عن محو خطيئة السرقة من مال الأمة لنقرأ هذا النبأ الرهيب:

"كان للنبي عليه السلام غلام يقال له مدْعم، وفي إحدى الغزوات أصابه سهم وهو يحطُّ رَحْل رسول الله ﷺ فمات."

"وجاء أصحاب الرسول ﷺ يعزُّونه في خادمه، ويقولون هنيئًا له يا رسول الله؛ لقد ذهب شهيدًا ولكن الرسول أجابهم قائلا."

"كلا، إن الشملة التي أخذها من الغنائم يوم خيبر، لتشتعلُ عليه نارًا الآن."

شملة تساوي بضعة دراهم أخذها هذا الغلام خفية أو خلسة يوم خيبر

ثم ها هو ذا يموت شهيدًا.

ولكن استشهاده هذا، لم يدفع عنه غائلة إثمه القديم لأنه كان إثمًا عظيمًا باهظًا. وعدوانًا غير مشروع على مال الناس، مال الأمة لكنها شملة لا تساوى شيئًا ؟؟

أجل ولكن تقديس "محمد" ﷺ لحرمات الحق، والعدل، والأمانة لا تعرف فى هذا المجال تفاوتًا ولا مفاضلة

ذات يوم رجع إلى المدينة أحد الولاة، وذهب ليقدم للنبى الأموال التى جمعها من الزكاة

قدم بعضها وقال هذا لكم واحتجز بعضها الآخر وقال وهذا أهدى إلىّ

وفى الغد والناس مجتمعون فى مسجد رسول الله ﷺ نهض الرسول ﷺ وصعد المنبر، فحمد الله وأثنى عليه ثم قال :

"أما بعد فإنى أستعمل الرجل منكم على العمل مما ولانى الله، فيأتى فيقول. هذا لكم. وهذه هدية أهديت إلىّ أفلا جلس فى بيت أبيه حتى تأتيه هديته إن كان صادقًا. ؟؟ والله لا يأخذ أحد منكم شيئًا بغير حقه إلا لقى الله تعالى يحمله يوم القيامة "

وهكذا يقطع محمد الطريق على السرقات هربة من الأبواب الخلفية "!" السرقات التى تؤخذ، متنكرة فى ثياب هدايا وهى فى نخص وقعها من شر ألوان الرشوة والسرقة والانتهاب

* * *

هذا هو العدل فيما نفعل

أما العدل فيما نقول، فقد ستوصى به الرسول خيرًا وجعل لألسنة

مسئولية كبرى فى إقرار العدل والحق ..

وولاء "محمد" ﷺ لعدل الكلمة يتمثل فى عبارة موجزة قالها. تلك هى

"المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده ."

هذا هو الإسلام، كفُّ اليد واللسان عن ظلم الناس وأذاهم وكف اليد، يعنى دحض كل أعمال العدوان المادى على حياة الناس، وأجسامهم، وأموالهم، وأعراضهم ..

وكف اللسان، يعنى درك كل عدوان ملفوظ من غيبة ونميمة ومنطق حلاَّف يهب أصحابه به الحقوق.

ولما كانت شهادة الزور من مصائب اللسان التى تضيع بها الحقوق وتختفى بها معالم العدل، فقد صَبَّ عليها "محمد" كل نقمة .

كما عد رسول الله ﷺ فقال

"ألا أنبئكم بأكبر الكبائر؟ الإشراك بالله وعقوق الوالدين، وشهادة الزور، ألا وشهادة الزور، وقول الزور "

"وكان متكئًا فجلس، وما زال يكررها حتى قلنا ليته سكت."

وعدوان اللسان، لا يقف عند شهادة الزور، ولا عند الحديث المنمق الذى يلبس الحق بالباطل.. بل إن كل كلمة مسيئة تعتبر عدوانًا

ولقد أوصى القرآن الناس قائلاً لهم: ﴿ وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا ﴾

وهكذا ركَّز الرسول على "عدالة القول" فى شتى صورها ولعله جمعها فى كلماته هذه

"من كان يؤمن بالله واليوم الآخر، فليقل خيرًا

أو ليصمت ."

ويحدث سفين بن عبد الله الثقفى فيقول

"قلت: يا رسول الله حدثنى بأمر أعتصم به ."

"قال: قل ربى الله، ثم استقم. قال: قلت يا رسول الله ما أخوف ما تخاف على؟ فأخذ بلسان نفسه، ثم قال: هذا..!!"

ذاك جنب من العدل خفىٌ ودقيق . ولكن على من يخفى ؟ على "محمد" الذى قال للناس "من كنت جلدت له ظهرا، فهذا ظهرى، فليقتد منه ؟!!"

"محمد" الذى قدس العدل فرفعه فوق الميول والأهواء، واعتبره ـ كما علمه ربه ـ واجبًا مفروضًا، لا تستخفه قرابة قريب، ولا يحتجزه شنآن عدو ؟

ها يدرك "محمد" رسول الله خطر اللسان على العدل، وخطر الكلمة، حدها، وهزلها، فيقف من حصائد الألسنة موقفًا مرعًا بالفهم، وبالحزم

انظروا

"إن الرجل ليقول الكلمة، لا يلقى لها بالا، يهوى بها فى النار سبعين خريفًا ..!!"

كلمة، لا تلقى لها بالا، قد يضيع بها حق إنسان، أو ينتقص بها قدره . يعلل وبالها عليك، وإثمها ممسكٌ بخناقك أمدًا بعيدًا

ذات يوم ذكر "الرسول ﷺ" زوجته "صفية" بخير، وكأنما مس الحديث من "عائشة" غيرة فأثارها

وقالت: وماذا يعجبك فيها؟ إنها قصيرة..!!

تلك هى العبارة التى ألقتها عائشة، ولم تزد . وإذا الرسول ﷺ يعقب عليها قائلا

"هذا يا عائشة ؟؟ لقد قلت كلمة لو مزجت بماء البحر لمزجته..!!."

إنه ساهر على المبدأ الذي فرضه عليه ربه، المتمثل في الآية الكريمة

﴿ وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا ﴾

وعدالة القول تقضي ألا تفضي الكلمة إلى مساءة .. أية مساءة لإنسان .. أي إنسان؟!!

حتى إذا تناولت الكلمة إنسانًا بنقيصة هي فيه تكون قد جافت العدل وجانبته

سأله واحد من أصحابه يومًا

"أرأيت إن كان في أخي ما أقول؟."

فأجاب "محمد" ﷺ

"إن كان فيه ما تقول، فقد اغتبته وإن لم يكن فيه ما تقول، فقد بهتّه.."

* * *

وينتقل "محمد" ﷺ من "عدالة القول" إلى "عدالة الشعور"

إنه يريد للناس أن ينطووا دائمًا على مشاعر عادلة، وأحاسيس نظيفة

فإذا اعتديت على آخر بيدك، فهذا ظلم وإذا اعتديت عليه بلسانك فهذا ظلم.

و "محمد" الإنسان يكشف ظلمًا آخر لم نكن نعرفه ظلمًا غير منظور بيد أنه سبب مباشر لكل ظلم منظور ذلكم هو ظلم الشعور.

إن مجرد انطوائك على مشاعر عدوانية تجاه الآخرين، يمسكك في عداد الظالمين.

وهذه المشاعر العدوانية، تتمثل في آفات كثيرة، منها

الحسد.. وسوء الظن.. والشماتة.. والاحتقار.

كل هذه الآفات ـ حتى إذا دارت داخل النفس والشعور، ولم تعبر عن نفسها بعدوان فعلى ـ يعتبرها "محمد" ﷺ ظلمًا

وهو لهذا ينقضها، محذرًا منها، ناهيًا عنها

يقول عن الحسد

"إياكم والحسد، فإن الحسد يأكل الحسنات، كما تأكل النار الحطب.."

* * *

"لا يجتمع في جوف عبد، الإيمان والحسد.."

* * *

"ليس مني ذو حسد ولا نميمة ولا كهانة، ولا أنا منه.."

ولقد سئل عليه السلام يومًا من أصحابه

"يا رسول الله أي الناس أفضل؟ فأجاب. كل مخموم القلب صدوق اللسان. قالوا. صدوق اللسان نعرفه، فما مخموم القلب؟؟ قال- هو التقي النقي الذي لا إثم فيه ولا بغي، ولا غل ولا حسد "

أجل ... إن سلامة الصدر تشكل عند "محمد" الإنسان العظيم والرسول الكريم المع سمات الإيمان، وأجل أركانه .

وإنه لدائم الحث عليها والتذكير بها، والإشادة بفضلها، لأنه يعرف دورها في إقرار العدل بين الناس ونفي الظلم عنهم بصورة شاملة

ذات يوم كان يجلس - عليه السلام - مع بعض أصحابه، فقال لهم "يطلع عليكم الآن رجل من أهل الجنة"، فطلع رجل من الأنصار تنطف لحيته من وضوئه

فصمم عبد الله بن عمرو، على أن يعرف عمل هذا الرجل الذي شهد له "الرسول" ﷺ بالجنة وبالخير على هذه الصورة .

فاصطنع حيلة حتى بايته في داره ثلاث ليال ..

فلم يجد له تعبدًا يفوق الآخرين.

وقبل أن يهم عبد الله بن عمرو بالرحيل عنه ذكر له مقالة "الرسول" ﷺ عنه، وسأله. إن كان له عمل صالح يخفيه، حتى استحق كل هذه المكانة

فأجابه الرجل "مالي عمل إلا ما رأيت أصلي كما يصلي الناس، وآتي من الطاعات ما يأتون غير أني لا أحسد أحدًا على خير أعطاه الله إياه وآخذ مضجعي كل ليلة، وليس في قلبي حقد لأحد..!!"

هذا هو النموذج الذي رفعه "محمد" ﷺ لأصحابه مثلا أعلى تهوي إليه الأفئدة

رجل لا يمتاز عن الناس بكثير صلاة، ولا صيام إنما بسلامة صدر لا يعرف الحقد ولا الحسد. ؟!

* * *

وأما سوء الظن، فقد كافحه "الرسول" طويلا

يقول عليه السلام:

"إياكم والظن، فإن الظن أكذب الحديث.."

ويقول

"إنك إن اتبعت عورات المسلمين أفسدتهم، أو كدت تفسدهم."

إن الظن عند "محمد" لا يشكل آفة سلبية، بل هو آفة إيجابية، لها في الإثم والعدوان دور إيجابي.

ووصفه الظن بأنه "أكذب الحديث" يعني خروج الظن عن مجرد كونه همهمة نفسية، إلى حقيقة أنه تحريض فعلي، ومشروع في عدوان

وتتبعك عورات الآخرين، ولو بالظنون النفسية وحدها، سيجعلك تتخذ منهم موقفًا سيئًا يجيبون عليه بموقف سيئ مثله وبهذا تكون قد أفسدتهم، وأفسدت نفسك قبلا.

ولما كان الظن يستتبع الفضول والتجسس، فقد أعلن "محمد" ﷺ مقته له واشمئزازه منه، قال في الحديث الذي نهى فيه عن الظن

"إياكم والظن، فإنه أكذب الحديث ولا تجسسوا ولا تحسسوا.."

وكان ينهى أصحابه عن أن ينقلوا إليه أخبار الآخرين فيقول لهم.

"لا تحدثوني عن أصحابي شيئًا، فإني أحب أن أخرج إليكم منشرح الصدر."

ألا حيا الله أشرف خلقه..!!

إنه بدلا من أن يضع العيون على حركات الناس وخلجاتهم ليكون في مأمن من مكر الماكرين يغمض هذه العيون ويرغب عن كل تجسس، وفضول !

ذلك أن "محمدًا" ﷺ إنسان صادق مع نفسه، صادق مع نهجه ورسالته

صادق مع حيته صادق فى علاقته بالناس وبالأشياء جميعًا

* * *

وأما الشماتة فيقول عنها

"لا تظهر الشماتة بأخيك، فيعافيه الله ويبتليك"

ويقول:

"من عير أخاه بذنب، لم يمت حتى يعمله"

ولنا أن نسأل: إن الشامت لم يعتد على أحد، فلم يعاقب. ؟ إنه مجرد سرور نفسى وأتاه حين رأى غريمه فى مأزق . ؟؟

هذا عند "محمد" عدوان من عدوان ينطوى على صغار، ودناءة

فعندما يكون الآخرون فى مأزق . يكون واجبنا أن نخف إلى نجدتهم، ونسارع إلى إنقاذهم فإذا تخلينا عن هذا الواجب، فقد ألحقنا بهم من الأذى بقدر ما تخلينا به من العون ثم زدنا مرارة الأذى فى أنفسهم بما ضممناه من فرح، وتهلل، وشماتة.

ولهذا لم يكن من القصاص بد..

وهذا معنى قول "الرسول" العظيم

"فيعافيه الله، ويبتليك."

وعن احتقار الآخرين نهى "محمد" الإنسان، وشدد فى النهى

يقول عليه السلام:

"إن الله أوحى إلى أن تواضعوا حتى لا يفخر أحد على أحد، ولا يبغى أحد على أحد.."

* * *

"ألا أخبركم بشر عباد الله؟ الفظ المستكبر."

ويرى في احتقار الناس أيّ كان قدر هذا الاحتقار شرًّا كبيرًا يلحق بمرتكبه الأذى والوبال، فيقول.

"يحسب امرئ من الشر أن يحقر أخاه.."

ويدمدم على المختالين في كلمات حامية يقول.

بئس العبد . عبد تخيل واختال ونسي الكبير المتعال.

بئس العبد . عبد تجبر واعتدى. ونسي الجبار الأعلى.

بئس العبد . عبد طغى وبغى. ونسي المبدأ ، والمنتهى. "

هكذا كافح "محمد" ﷺ الحسد، والطمع، والشماتة، والاحتقار بوصفها مشاعر عدوانية وبوصفها نوعًا من الظلم الخفي الذي يدور داخل النفس، ثم يفضي إلى مظالم خطيرة، وشرور كثيرة

وفي كل مظاهر الظلم التي أسلفناها ـ المعلن منه، والمستخفي كان الحديث يدور حول ظلم الغير. أعني الظلم الذي يقع على الآخرين

ولقد رأينا كيف قاوم "الرسول" ﷺ ظلم الغير هذا، في كل مظاهره ومصادره، وأشكاله ـ فعلا كان أو قولاً، أو شعورًا

لكن ثمة ظلمًا لا يحسبه الناس ظلمًا. ذلكم هو ظلم النفس

فكثيرًا ما نظن في حق ممتع "!" أن من حقنا الحق لنعبث بأنفسنا ما دمنا أنفسنا..

هذه نفسي. وإذا لم أملك حق التصرف فيها، والتلهو بها كما أشاء، فماذا يبقى لي من حق...؟؟

أنت ظالم إذ فقأت عين إنسان آخر. لكن إذا بدا لك لأمر ما أن تفقأ عينك

أنت.. فأي ظلم هنا.. أليست عينك، والأذى وقع بك وحدك.. فأين الظلم هنا، وكيف يكون ظلمًا..؟؟

إن "محمدًا" ﷺ الذي جعل العدل شريعته، والذي تعقب الظلم في أدق أشكاله، وأخفى مظانه ـ سيفسر لنا ظلم النفس هذا.

فنحن هنا خلق الله، والله لم يخلقنا عبثًا، إنما خلقنا ليحقق بنا أمورًا عظمى.

وفي كل لبنة من بنائه الإنساني الشامخ، أعني في كل فرد، سر النوع البشري جميعه.

والله سبحانه حين يصطفي من عباده من يرتادون للناس الطرق المجهولة.. لا يضع عينه على الضخام العظام ذوي الهامة والقمة والثراء والبأس.

ولطالما انبثق من الصفوف الخلفية أنبياء ومرسلون وقادة ومصلحون.

أليس ذلك دليلا على أن عامة الناس وصفوتهم في الميزان سواء؟ بلى.

وفي ذلك أيضًا دليل على أن الفرد الإنساني له قيمته.. أيًا كان ذلك الفرد عالمًا، أو وراقًا.. ملكًا، أو كناسًا.

وقيمة الفرد آتية من أنه ينطوي على سر نوعه الإنساني، ويحمل جزءًا من مشيئته ومن قدرته.

وآتية من أنه خلق الله الذي لا يخلق عبثًا..

ومن ثم، فهو لا يملك أن يتصرف في نفسه على هواه..

وإذا بدا للذين يؤمنون بالله، أن يضعوا مكان كلمة "الله" كلمة "الطبيعة" فإن النتيجة لن تتغير. فالفرد الإنساني بوصفه جزءًا من الطبيعة، متضمنًا سرها، ومشيئتها وقدرتها، لا يملك أن يفوت عليها فرصة وجوده والانتفاع به.

والإنسان عند "محمد" ﷺ ـ عبد الله، ولكنه عبده الحر الرشيد.. يختار رأيه، ويختار عقيدته، ويختار حياته ﴿فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ﴾

و﴿ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ﴾، ﴿ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴾ و ﴿ ٱلْإِنسَٰنُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ بَصِيرَةٌ ﴾.

وموقف "محمد" من الناس، موقف الناصح الأمين، فليس عليه إلا البلاغ، وفى أمر التكليف الذى ألقى عليه تبعات الرسالة، قال الله له: ﴿ وَمَا أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ ﴾ - ﴿ إِنَّمَا أَنتَ مُنذِرٌ ﴾ - ﴿ لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَىٰهُمْ ﴾ - ﴿ إِنَّمَا أَنتَ مُذَكِّرٌ ﴾ - ﴿ إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ﴾

وحين أراد "الرسول" عليه السلام أن يكافح ظلم الإنسان لنفسه شطر واجبه تجاه ذلك شطرين

الأول، واجبه تجاه الإنسان كحياة

والثاني، تجاه الإنسان كإرادة وسلوك..

أما الإنسان، كحياة فقد وقف "محمد" ﷺ موقفًا صارمًا ضد ظلم الفرد لحياته

حياتك ليست ملكًا لك إلا بالقدر الذى تحقق به إرادتك الحرة السوية - إرادة البناء لا الهدم.

فإذا أردت أن تقوض حياتك بالانتحار مثلا، فلتعلم حينئذ أنها لم تعد حياتك، وليس من حقك أن تمسها بسوء

إنك لا تعلم ما فى هذه الحياة التى تريد أن تجهز عليها من خير

قد يكون فى صلبك عبقرى ينتظر ساعة الإنجاب والولادة

ولو أن آباء الرواد الذين قادوا التاريخ الإنسانى، وملئوه روعة ونفعًا.. لو أن آباء هؤلاء استجابوا لدواعى اليأس، وتخلصوا من الحياة، فأى ظلم كانوا

سيطلمونه للحياة وللناس، حين يذهبون وفى أصلابهم تلك العبقريات التى هزت الوجود، ورعرعت الحياة؟؟!!

لقد بدأ "محمد" مقاومة ظلم الإنسان نفسه من هنا..

من الانتحار..

انظروا.

"من تردى من جبل فقتل نفسه، فهو فى نار جهنم يتردى خالدًا مخلدًا فيها أبدًا.."

"ومن تحسّى - أى شرب سمًا - فقتل نفسه فسمه فى يده يتحساه فى نار جهنم خالدًا مخلدًا فيها أبدًا."

"ومن قتل نفسه بحديدة، فحديدته فى يده يتوجأ بها - أى يضرب بها - نفسه فى نار جهنم خالدًا مخلدًا فيها أبدًا.."

إنه وعيد رهيب، لا ريب.

ولكن ألا تساوى الحياة أن يزجر الناس عن إرهاقها، بمثل هذا الوعيد؟؟!

ويحدثنا جابر بن سمرة صاحب رسول الله ﷺ أن رجلا أجهز على حياته، فلم يصل الرسول عليه

* * *

وكما يكون تقويض الحياة ببترها، والإجهاز عليها، يكون أيضًا بتعطيلها وإحباط قواها..

وكما يكون الإنسان ظالمًا لنفسه حين يقتلها يكون كذلك ظالمًا لها حين يتركها للسوء والآفات

وهنا يقف محمد ﷺ وقفة كلها ولاء للحياة، وكلها بر بإرادة الإنسان، وبالسلوك الإنسانى.

وهنا أيضًا ـ تتضح الوجهة الفريدة لموقف "محمد" من الآثام.

ففى سبيل الحيلولة بين الإنسان وظلمه نفسه قوم "محمد" ﷺ الرذائل والآثام

لأن الإثم ظلم للنفس، بل هو من أكثر أنواع الظلم تنكرًا وأشدها وبالا.

أجل ـ هكذا ينبغى أن نفهم موقف "محمد" من الخطيئة

فهو لم يرد قط أن يتحكم فى الإرادة الإنسانية ولا أن يسوق الناس سوق القطيع

إنما أراد أن يمكنهم من وسائل الغلب والتفوق

وهو حين ينهى عن الرذائل، ويشدد فى النهى عنها إنما يفعل هذا لما يعرفه تمامًا من ضراوة الرذائل الفاتكة، وقدرتها على تعويق التكامل الإنسانى وإحباط مسعى الإرادة إلى الخير والارتقاء..

على أنه فى نهيه وزجره عن الإثم، لم ينس لحظة واحدة، تلك الظروف الكثيرة التى تجعلنا آثمين.

فكان مثله مثل الوالد الحنون الذى يبصر طفله يبسط كفه الغضة إلى جمرة متوهجة ليلهو بها ويلعب.

إنه يزجره فى عنف. ولكن وراء هذا الزجر حنان دافق !!

وما كان "لمحمد" رسول العدل والرحمة، أن يترك هذا اللون اللدود من الظلم ظلم الإنسان نفسه باقتراف الآثام، دون أن يجنبه هذا الظلم ويحذره عقباه

وهكذا مضى يحذر، وينذر، ويعلم

إنه يدعونا إلى الطاعة والخير.

ويدعونا إلى التوبة دومًا، لأننا على الدوام عرضة للزلل

يقول عليه السلام

"يأيها الناس توبوا إلى الله، واستغفروه، فإني أتوب إليه في اليوم مائة مرة.."

وهو يرسم صورة لفضيلة الصادقة:

"أن تعبد الله، كأنك تراه، فإن لم تكن تراه، فإنه يراك"

"اتق الله حيثما كنت وأتبع السيئة حسنة تمحها وخالق الناس بخلق حسن.."

"إن الله تعالى يغار وغيرة الله أن يأتي المرء ما حرم الله عليه.."

"الكيِّس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت والعاجز من أتبع نفسه هواها، وتمنى على الله الأماني"

ويقول عليه السلام

"حفت النار بالشهوات، وحفت الجنة بالمكاره"

"يتبع الميت ثلاثة: أهله، وماله، وعمله، فيرجع اثنان، ويبقى واحد: يرجع أهله، وماله ويبقى عمله.."

"كل أمتي يدخلون الجنة إلا من أبى، قيل ومن يأبى يا رسول الله؟ قال: من أطاعني دخل الجنة ومن عصاني فقد أبى.."

وتتوالى أحاديث "محمد" ﷺ وكلماته داعية إلى الفضائل واحدة واحدة، وناهية عن الرذائل، رذيلة رذيلة.

وهو في كل هذا يهدف كما ذكرنا من قبل إلى إقرار العدل والسلام بين الإنسان ونفسه ـ بتجنيبه الآثام التي يظلم بمقارفتها ذاته

لقد لخص الدين في كلمة واحدة فقال

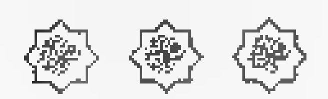
"الدين، النصيحة.."

ولقد نصح عليه السلام أوفى ما يكون النصح الصادق، الأمين

* * *

هذا موقف "محمد" ﷺ مع العدل. بعد موقفه من الرحمة

والآن إلى مجال آخر من مجالات إنسانيته الباهرة.



الفصل الثالث

..والحب فطرته





"محمد" ﷺ مُحبٌّ، ودود!

أطاع الله كثيرًا؛ لأنه أحبه كثيرًا.. وبرَّ الناس كثيرًا؛ لأنه يحبهم كثيرًا.. وأقبل على الفضائل والواجبات جذلان متهجًا، لأنه أحبها وأحب من كل قلبه الطهر، والنقاء.

وهذا هو سر تفوق عظمة "محمد" ﷺ. إنه أحبَّ عظائم الأمور، ومارسها في شغف عظيم، مارسه محب مفطور.. لا مارسه مكلف مأمور!!

ووراء كل سلوكه ومواقفه وحياته نجد الحب.

إذ سجد وأطال السجود، وسُمع وَجيبُ قلبه، ونشيج تضرعه وبكائه فذاك لأنه في غمرة شوق جارف، ورغبة راخدة.

ولهذا، كان ينتظر الصلاة على شوق.. فإذا جاء ميعادها قال لمؤذنه "أرحنا بها.. يا بلال..!"

أجل أرحنا بها.. لا أرحنا منها..!!

وهذا هو الفارق بين الحب، والواجب.

إن الواجب قد يؤدَّى على كره ومضض. أما الحب فيأخذ طريقه إلى أشق الأمور في ابتهاج وغبطة.

وإذ شغل نفسه وباله بأمور الناس، وجد في هذا الشغل لذة العاشق ونشوة المحب.. ذلك أن عناء الواجب لم يعُدْ له إلى روح "محمد" سبيل.. لقد سيطر الحب وساد..

وأصبحت الوحدات هواية لا، بل فوق هذه، وأجل من هذه صارت شعائر يُحبها، ويعشقها، ويأنس بها ومعها

والحب عند "محمد" ليس شهوة. إنما هو فطرة.

وفطرته تنساب ألفة، وتتفجرُ محبة

هكذا كان طفلا، وفتى، وكهلا.

لم تقع عليه عين إلا أحبته وأسلمت قلب صاحبها لهيام شديد

ذلك أنه كان ينطوي على حب كبير ـ بل كان هو الحب كله

فإذا رآه مبغض ثلاث. ذاب بغضه من فوره حين يمسه مس واحد من أنفاس حبه الجياش الدفوع

ذات يوم أقبل عليه رجل قط لم يكن رآه من قبل، غير أنه سمع أن "محمدا" يسبُ آلهة قريش والقبائل كلها، فحمل سيفه وأقسم ليسوِّينّ مع "محمد" حسابه

وبدأ حديثه عاصفاً مزمجراً. "والرسول" ﷺ يبتسم وتنطلق مع بسمته أطياف نور آسر وما هي إلا لحظات، حتى نقلب المغيظ المتجهم محبٌّ يكاد من فرط الوجد والحياء يذوب، وانكفأ على يدى "محمد" ﷺ وقدميه يقبلهما، ودموعه تنحدر في انثيال مُتدارك

ولما أفاق. قال

"يا "محمد": والله لقد سعيتُ إليك، وما على وجه الأرض أبغض إليَّ منك، وإني لذاهب الآن عنك، وما على وجه الأرض أحب إلي منك.."!!

ماذا فعل "محمد" ﷺ بقلب الرجل وروحه ؟؟

لا شيء

لقد أحب "محمد" الرجل من كل قلبه، فحر جبروته صريع حب ودبع

و"محمد" لا يتكلف الحب، بل لا يبذله إنما يبذل الحبُّ عند"محمد" نفسه !!

وقلب "محمد" مفتوح دائمًا لكل الناس .. الأصدقاء، والأعداء

والذي حدث عندما اقترب ذلك الرجل منه، أن مسته شعاعة من فيض قلبه الكبير

معذورة قريش، حين لم تدرك هذا السر الجليل . فقالت: إن "محمدًا" ساحر .

ما رآه جبار إلا لان عوده من فوره

وما أكثر الذين أقبلوا عليه ليزجروه، ويفتنوه عن دينه، فما هو إلا أن تُعانقهم منه نظرات عينيه الحانيتين حتى يدخلوا في دينه فرحين .!!

ومن هؤلاء كان "عمر بن الخطاب"

ألم يذهب إليه منتضيًا سيفه، والناس يتواثبون من كل مكان ليشهدوا الموقعة الكبرى .

ولكن "عمر" الجبار ذاب كقطرة ماء امتصتها قطعة من السكر

ذاب حتى قبل أن تقع عليه عين "محمد" ﷺ ذاب عندما وقعت عيناه على آيات من القرآن أودعها "محمد" وهو يتلوها، نبض حبه، وصفاء روحه، واقتدار مودته ..

* * *

"محمد"، محب ودود

والحب عنده طبيعة، وفطرة، لا عرض وشهوة

من أجل هذا، كان بذل حبه في سخاوة نفس نادرة النظير

أحب الله .. وأحب الناس .. وأحب الزمن، والمكان، وأحب كل شيء مس

كون الله الرحيب

وحين نتتبع الحب في حياته وفي أحاديثه، نجده قد اتسع لكل شيء وأحاط بكل شيء.

لقد بدأ فأحب ربه حبًا عظيمًا.

والله - عند "محمد" - هو بارئ الحياة كلها والأحياء جميعًا. فكل حب له هو في الوقت نفسه، حب للحياة وللأحياء.

ذلك أن الله عند "محمد" وفي عقيدته، ليس أسطورة مثالية ولا رمزًا خياليًا إنما هو حقيقة، بل هو الحقيقة الكبرى.

وإن الجلال المهيب الذي يتبدى عن الكون العظيم ليفعم قلب "محمد" ﷺ بالحب والتقديس لخالق الكون ومبدعه.

وإنه ليهيم حبًا، ويتفجر شوقًا.

ذات يوم وهو في الطائف، حديث عهد بدعوته - سلط عليه أعداؤه بعض السفهاء، فانطلقوا وراءه يحصبونه بالحجارة.. فأوى منهم إلى حائط يتقي به الحجارة المقذوفة.. واستجاشت المحنة نفسه، فهطلت دموعه وكأنما كانت الحجارة تلقى في بحيرة ساجية ساكنة، فأثارتها، وأهاجت ماءها العذب الوديع.

أجل.. لقد جاشت نفس "محمد" ﷺ بما تنطوي عليه من حب، وشوق. ورفع بصره إلى سماء ربه ومحبوبه، وقال:

"إن لم يكن بك غضب عليّ، فلا أبالي"!!

الله أكبر..

إن "محمدًا" ﷺ لا يخشى العذاب، ولا الألم إلا إذا كان تعبيرًا عن تخلي الله عنه.

أما إذا لم يكن الله غاضبًا، ولا عاتبًا، فمرحبًا بالألم.. ومرحبًا بكل ما يكيد به السفهاء..

"إن لم يكن بك غضب عليّ فلا أبالي ..!!"

وفي الثو و للحظة يدرك "محمد" أنه لا ينبغي للمحب لصادق في حبه أن يشغله استعداد لتضحية، عن رجاء العافية فيتبع ضراعته السالفة، بضراعة أخرى ويقول

"ولكن عافيتك أوسع لي .."

إن الحب في غمار التضحية شيء جميل ولكن الحب في غمر العافية أوفى وأجمل

و"محمد" ﷺ موفور لاستعداد لأن يلاقي كل آلام الحب ولكنه شديد الشوق لمباهج الحب ..

ومباهج الحب تتألق في نطاق العافية فهو إذن ينشد لعافية، لأنها تتيح له المزيد من الحب.. والمزيد من الطاعة لمن أحب

وهكذا تمضي ربه تلك المناجاة الذكية :

"إن لم يكن بك غضب عليّ، فلا أبالي.. ولكنّ عافيتك أوسع لي ."

إنه ـ عليه السلام ـ لم يقل "عافيتك أحب إليّ" بل قال "عافيتك أوسع لي"

ذلك أن المحب الصادق لا يختار لنفسه، ولا يجنح عن إرادة المحبوب واختياره

و"محمد" ﷺ لا يحب نفسه، ولا يحب لنفسه إنما حبه لربه "حقيقة" من حقيقات الإرادة الإلهية وحدها!!

ذات يوم يحنو على ولده الحبيب "إبراهيم" وهو مسجّى في فراش الموت ويتدفق حنان "محمد" غامراً فيضاً، فلا يريد عنى أن يقول وعيناه تبكيان.

"تدمع العين .."

"ويحزن القلب "

"ولا نقول ما يسخط الرب .."

أجل هذا هو حب "محمد" ربّه ومولاه حب فوق مستوى النفس . حب نابع من الله وعائد إليه. حب يجرر صاحبه من كل ما يسخط محبوبه العظيم

ولطالما كان "محمد" ﷺ ينتشي بهذا الحب من هو دومًا مُنتشٍ به نَشْاء كله يقظة وصدق .

يقول في بعض أحاديثه الكريمة

"رأيت الليلة ربى فى المنام فوضع يده بين كتفى، حتى وجدت بردَ أنامله فى صدرى ."

تأملوا بهاء هذه الصورة

"وجدت برد أنامله فى صدرى "

إنها تكشف عن طبيعة المشاعر والأحاسيس التى كان حب "محمد" لربه يعزف على أوتارها

إنه يجد برد أنامل الله في صدره .

إن علاقته بالله، وحبه إياه بلغ من الشفافية والألق الذروة العليا

وتتبدى الإيجابية فى حب "محمد" لله حين يتبتل له ويخبت وحين يضع الصدق فى العلاقة بالله موضع التقديس

وإذ كان الرياء يعنى فقدان الصدق فى علاقتنا بالله وفقدان الصدق يعنى بدوره تهالك الحب وزيفه. فقد شن "محمد" ﷺ على الرياء هجمات ماحقة ولم يكن ثمة رذيلة أبغض إلى نفسه الكبيرة منه

يقول للناس

"إنما الأعمال بالنيات، وإنما لكل امرئ ما نوى.. فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله، فهجرته إلى الله ورسوله"

"ومن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها أو امرأة ينكحها، فهجرته إلى ما هاجر إليه.."

إنه يريد أن يكون حبنا لله خالصًا وأعمالنا في سبيله خالصة و"محمد" ﷺ يجل العلاقة بالله إجلالا يحمله على اعتبار الرياء شركًا

يقول لأصحابه

"إن أخوف ما أخاف عليكم، الشرك الأصغر قالوا: وما الشرك الأصغر يا رسول الله؟ قال: الرياء. يقول الله عز وجل إذا جزى الناس بأعمالهم: اذهبوا إلى الذين كنتم تراءون في الدنيا فانظروا هل تجدون عندهم جزاء..؟"

ويقول أيضًا

"لا يقبل الله عملا فيه مثقال حبة من خردل من رياء."

إن الإخلاص هو الربيع الذي يكشف صدق الحب وزيفه

وحب غير مفعم بالإخلاص، لا يكون حبًا على الإطلاق ولقد أحب "محمد" ربه، وعلم الناس كيف يحبونه

* * *

هوذا حبنا حب "محمد" الناس، وحبنا نحدثه نفسه، والصدق نفسه ونفس الوجدان العامر العظيم

انظروا..

إن "محمدًا" ﷺ يحب الناس جميعًا..

ومحمد ألقى إليه بكلمات الهدى والخير والفلاح

ومن ثم دفعه حبه للجميع لأن يبلغ هذه الكلمات الهدية للجميع

واستجاب الله له أو قولوا. حتره الله لما كان هو يرغبه ويرجوه فأرسله للناس كافة

فرسالة "محمد" تمثل تبعات حبه للناس جميعً

إن من يحب الناس حبًا صادقً، يصير مسئولا عن مصايرهم

وهكذا حمل "محمد" ﷺ مسئولية حبه العظيم

إنه لم يحب عشيرته الأقربين وحدهم .

ولم يحب العرب وحدهم .

بل أحب الناس جميعًا.

وإذن، فليحمل المسئولية تجاه الناس جميعًا.

وهذا هو معنى أنه رسول للعالمين

يقول المحب الودود عليه السلام

"بعثت إلى الأحمر والأسود.."

فشمول رسالته إذن، ليس مظهر سطرة ولا طمعً في نفوذ

إنما هو مسئولية الحب الذى فطر عليه محمد ﷺ حب الناس جميعً أحمرهم وأسودهم

وليس أدل على هذا من قوله عليه الصلاة والسلام في حديث آخر

"بعثت إلى الناس كافة. فإن لم يستجيبوا لى، فإلى العرب.. فإن لم يستجيبوا لى، فإلى قريش. فإن لم يستجيبوا لى، فإلى بنى هاشم..

فإن لم يستجيبوا لى، فإلىَّ وحدى"

بالله ما أروعه.. !!

إنه ليس بمسيطر

إنه محب.. يدعو من أحبهم إلى الخير، فإن استجابوا فما أسعده بهذا.. وإن لم يستجيبوا فقد أدى الذى عليه

ولقد انتصر حبه العظيم الصادق، وبلغ رسالته للناس جميعًا

ويدعو "محمد" الناس كى يحب بعضهم بعضًا.. بل يجعل الحب آية الإيمان، فيقول

"والذى نفسى بيده لا تدخلوا الجنة حتى تؤمنوا.. ولا تؤمنوا، حتى تحابُّوا.."

ويُعنى عليه السلام، بكل ما من شأنه أن يبعث عواطف الحب بين الناس

ذات يوم كان يجلس معه رجل من أصحابه، فمر بهما رجل آخر فقال جليس النبى له يا رسول الله: إنى أحب هذا الرجل

فسأله الرسول: وهل أعلمته بهذا.. ؟

قال الرجل.. لا

قال النبى.. فأعلمه.

فلحقه الرجل وقال له.. إنى أحبك فى الله

فأجابه صاحبه: أحبك الذى أحببتنى له.. !!

ووضع الرسول ﷺ لهذا تعليمًا وتوجيهًا فقال:

"إذا أحب أحدكم أخاه، فليخبره أنه يحبه"

ويقول..

"إذا آخى الرجلُ الرجل، فليسأله عن اسمه، واسم أبيه، وممن

هو، فإنه أوصل للمودة".

والحب عند "محمد" مثوبة نفسه .

والمحب قد يدرك بحبه ما يعجز عن إدراكه بعمله.

يسأله "أبو ذر" ذات يوم عن الرجل يحب القوم ولا يستطيع أن يعمل

عملهم؟

فيجيبه عليه السلام بعبارته الجامعة:

"أنت مع من أحببت ..."

أجل.. إن الحب نسب .

فإذا أحببت خيار الناس، فأنت منهم وأنت معهم.. حتى إذا سبقوك في

السعي، وتفوقوا عليك في العمل.

ويحلق "محمد" عليه الصلاة والسلام بالحب في الله تحليقًا عاليًا حين

يقول لنا:

"إن من عباد الله أناسًا، ما هم أنبياء ولا شهداء، يغبطهم الأنبياء

والشهداء يوم القيمة لمكانهم من الله تعالى ."

"قالوا يا رسول الله، تخبرنا من هم."

"قال: هم قوم تحابوا بروح الله على غير أرحام بينهم، ولا أموال

يتعاطونها.."

"فوالله إن وجوههم لنور، وإنهم لعلى نور، لا يخافون إذا خاف

الناس.. ولا يحزنون إذا حزن الناس.."

ثم تلا قول الله تعالى: ﴿ أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا

هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾

والحب عند الرسول ﷺ، يمثل القاعدة الراسخة لسلوكه. وحين تفرض عليه الظروف القاهرة أن يبغض بعض الناس، فإن هذا البغض لا ينفصل عن قاعدة الحب ذاتها. أعني أنه ـ عليه السلام ـ يبغض حين يكون البغض تعبيرًا عن الحب، وولاء له.

فهو ـ مثلا ـ يحب الحق. وهذا الحب يقتضيه أن يبغض الباطل.

وهو يحب العدل، وحبه العدل يتطلب أن يكره الظلم.

وهكذا، فهو لا يبغض عن حقد أو ثِرة. إنما يبغض حين يكون البغض "موقف دفاع" عن شيء يحبه.

وهو لا يحب لنفسه، ولا يبغض لنفسه، إنما تحدد قيمُ العليا السامية، ما يحب وما لا يحب.

على أن بغضاءه هذه، عندما يكون موضوعها أناسًا يستحقونها.. لم تكن ذات أصالة في طبيعته ولا في سلوكه.. بل مجرد سحابة رقيقة عابرة، لا تلبث شمس حبه أن تسطع أثرها مرسلة دفئها وسناها.

فها هو ذا يلقى من خصوم دعوته في قريش أشد الأذى، وأفدح المؤامرات.

ولكنه لا يكاد يدخل "مكة" ظافرًا مؤيدًا حتى يقول للذين أخرجوه منها، وكادوا له أعظم الكيد:

"اذهبوا فأنتم الطُّلَقاء.."

لقد أبغضهم حين أخذوا على عاتقهم إطفاء نور الله ومقاومة قوى الخير والحق.

فلما زال عنهم بأسهم الذي عزهم بالله، وحرصهم على الشر.. زالت

بغضاؤه هم، وكأنها لم تكن..!!

ولمحمد الإنسان فى هذا المقام توجيه تناهى فى السداد والفطنة

فهو يقول

"أبغض بغيضك هونًا مًا. عسى أن يكون حبيبك يومًا ما."

* * *

ولما كانت آداب الصحبة والسلوك مما يشد أصرة الحب، ويزكى مشاعر الود فقد أولاه "الرسول" ﷺ عناية واهتمامًا، وتتبع دقائقها فأوصى بها خيرًا وربما لننبهر حقًّا ونحن نطالع وصايا محمد فى هذا المجال.

اقرءوا

"إذا كانوا ثلاثة . فلا يتناجى اثنان دون الثالث، فإن ذلك يحزنه "

أية إنسانية غامرة، تلك التى يتضمخ بها قلب "الرسول" الكبير ؟!!!

إنه يوصى الأصدقاء إذا كانوا ثلاثة ألا ينفرد اثنان منهم بكلمة سر، فإن ذلك يسىء إلى شعور الثالث، إذ يضعه، أو قد يضعه موضع الظنة وضعف الثقة به.

وفى آداب الصحبة يقول كذلك

"لا يقيمن أحدكم رجلا من مجلسه ثم يجلس فيه ولكن توسَّعوا ، وتفَسَّحوا ، يَفْسح الله لكم."

بل يقول، وما أروع ما يقول .

"لا يحل لرجل أن يجلس بين اثنين إلا بإذنهما.. ألم أقل لكم إنه تتبع دقائق آداب الصحبة ، فجعلها شعائر .؟ وهو يعتز أيما اعتزاز بتبادل التحية.."

وهاتان الكلمتان "السلام عليكم" تعنيان عند "محمد" شيئًا كثيرًا وجليلا
يقول عليه السلام

"إذا انتهى أحدكم إلى المجلس فليسلم. فإن أراد أن يقوم فليسلم.. فليست الأولى بأحق من الأخرى."

ويحدث "كلوة بن الحنبل" فيقول :

"بعثني صفوان بن أمية إلى رسول الله ﷺ بهدية. فدخلت عليه، ولم أستأذن، ولم أسلم، فقال لي الرسول: ارجع، فقل : السلام عليكم، أأدخل.؟"

وحتى مع الأهل الذين يراهم دائمًا، ويعيش معهم، يوصي عليه السلام، بالحرص على التحية
يقول أنس رضي الله عنه

"قال لي رسول الله ﷺ : يا بني. إذا دخلت على أهلك فسلم، يكن سلامك بركة عليك وعلى أهل بيتك.."

ويُسأل "رسول الله" ﷺ ذات مرة:
- أيّ الإسلام خير..؟؟
فيجيب

"تطعم الطعام. وتقرأ السلام على من عرفت، ومن لم تعرف."

ويقول عليه السلام

"ثلاث يصفين لك وُدّ أخيك: تسلم عليه إذا لقيته. وتوسع له في المجلس. وتدعوه بأحب أسمائه إليه.."

وهو يقول أيضًا:

"تصافحوا، يذهب الغل.."

* * *

والوفاء لا ينفصل عن الحب بحال.

ووفاء "محمد" ﷺ شيء فهو يفوق كل ولاء؛ لأنه نعكاس حب عظيم، يفوق كل حب

سئل يومًا، لماذا يجهد نفسه في العبادة، وقد غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر

فانظروا كيف كان جوابه؟

"أفلا أكون عبدًا شكورًا..!!؟؟"

أصدق وأروع صور الوفاء لله.

"أفلا أكون عبدًا شكورًا..!!؟؟"

وذات يوم زارته بالمدينة سيدة عجوز، فهفت عليه السلام للقائها في حفاوة بالغة، وعطفة حافلة، وأسرع فجاء ببردته النفيسة وبسطها على الأرض لتجلس عليها العجوز

وبعد انصرافها، سألته عائشة رضي الله عنها عن سر حفاوته فقال

"إنها كانت تزورنا أيام خديجة.."

* * *

وبين غرفته في المسجد، ومكان المنبر، حيث كان يؤم المسلمين في الصلاة، بضع خطوات.. كان يقطعها كل يوم عند كل صلاة..

وقد أحبها أحب هذه الأمتار من الأرض، لأنها كانت ممشاه إلى الله وإلى قرة عينه الصلاة

وقد أخذه إليها مع الحب ود عجيب فكرمها وأجلها وقال

"ما بين منبري وبيتي، روضة من رياض الجنة."

وكان يقول عن جبل "أحد".

"أحدٌ" جبل يحبنا، ونحبه."

* * *

وكان ـ عليه السلام ـ وهو يخطب الجمعة قبل أن يتخذ لنفسه منبرًا، يقوم إلى جذع نخلة، فلما صنع المنبر، ووقف عليه "الرسول" لأول مرة أدار وجهه حيث الجذع الذي طالما وقف عليه من قبل، ودمعت عيناه

وغادر منبره متجهًا إلى الجذع في هيام جارف، واحتضنه.

ثم عاد وصعد المنبر ولما فرغ من الخطبة ومن الصلاة، أوصى أصحابه أن يضعوا الجذع في سقف المسجد حتى لا يُستهلك في غرض آخر تكريمًا له، ووفاء!

يا بن عبد الله

مَن مثلك، يجيد الحب.. ويجيد الوفاء؟؟

ألا وإن هذا المشهد لا ينبغي لأحد أن يتطفل عليه بتعليق وكلام، فلنقف أمامه في انبهار وخشوع.. وهذا حسبنا.

ولما كان الخصام عدوًا على حياة الحب وأواصر الود فقد نهى عنه "محمد" ﷺ وحذر منه، وأخبر الناس أنه لا يحل لأحدهم أن يهجر أخاه فوق ثلاث

بل أنباهم أن القطيعة إذا استطال أمدها، تكاد تصير جريمة قتل

انظروا هذا الحديث العظيم

"من هجر أخاه سنة، فهو كسفك دمه.."

أجل إن القطيعة عند "محمد" "جريمة قتل" لأنها عدوان على أعظم مقدسات الحياة - الحب !

ويقول عليه السلام

"كفى بك إثمًا ألا تزال مُخاصمًا.."

ولما كان الخصام يأتي أحيانًا من الملاحاة والجدل المغرض، فقد أراد "محمد" ﷺ أن يُنقي جو الحب والإخاء من هذه الشوائب جميعًا.

ذات يوم، كان أربعة من أصحابه هم أبو الدرداء، وأبو أمامة، وواثلة بن الأسقع، وأنس بن مالك - جالسين يتجادلون ويتمارون، وعلى الرغم من أن جدالهم كان في شيء من أمر الدين إلا أن حدة الجدل غير مأمونة العاقبة

وهكذا، وبينما هم يتمارون خرج عليهم رسول الله ﷺ فغضب غضبًا شديدًا ثم قال

"مهلا يا أمة محمد.."

"إنما هلك من كان قبلكم بهذا - ذروا المراء لقلة خيره، ذروا المراء فإن المؤمن لا يُمارى، ذرُوا المراء فإن المماري قد تمت خسارته. ذروا المراء فكفى بك إثمًا ألا تزال مماريًا.. ذروا المراء فإن المماري لا أشفع له يوم القيامة.. ذروا المراء فأنا زعيم بثلاثة أبيات في الجنة - في رياضها، ووسطها، وأعلاها - لمن ترك المراء وهو صادق، ذروا المراء فإن أول ما نهاني عنه ربي بعد عبادة الأوثان - المراء."

أرأيتم هذه الدمدمة على المراء ..؟؟

إن من ورائها ولاء "محمد" ﷺ للحب، الحب الذي يرجو له الذيوع والسيادة والذي يحاذر عليه من كل سوء يصيبه، أو روعة تهب عليه

* * *

ومما يدوم به الحب بين الناس أن تكون للمعاذير عندهم حرمة، وللعثرات من مغفرتهم نصيب.

ذلك أن من طبائع الحياة الاجتماعية بما تنطوي عليه من شد وجذب أن يتباين الناس، ويختلفوا، ويخطئ بعضهم في حق بعض

و"محمد" ﷺ لا يريد أن تكون هذه الأخطاء سبيلا لهدم الحب

ومن ثم أوصى بإقالة العثرة وقبول المعذرة

يقول عليه السلام:

"من أقال نادمًا، أقاله الله نفسه يوم القيامة"

ويقول

"من أتاه أخوه متنصلا - أي معتذرًا - فليقبل ذلك محقًا كان أو مبطلا، فإن لم يفعل - لم يرِدْ على الحوض -"

ويرسم عليه السلام صورة لشرار الخلق، وأكثرهم إيغالا في الشر، فيقول

"هم الذين لا يُقيلونَ عثرة. ولا يقبلون مَعْذرة.. ولا يغفرون ذنبًا..!!"

أي إنسان هذا الذي تتفجر من جوانب نفسه ينابيع بر لا يغيض لها مَعين ؟؟

إنه "محمد" ﷺ

إنه المحب الودود .

والآن، لنصغ إلى "محمد" ﷺ في كلماته الوضاء هذه

"إن أحبكم إليّ، أحاسنكم أخلاقاً. الموطئون أكنافاً. الذين يألفون ويؤلفون.."

"وإن أبغضكم إليّ، المشاءون بالنميمة . المفرّقون بين الأحبة الملتمسون للبرآء العيب.."

أبغض الناس إلى "محمد" أكثرهم عداوة للحب

هؤلاء الذين عبر عنهم بقوله "المفرقون بين الأحبة"

ألا تشمّون أريج هذه الكلمات، وعطرها..؟؟

ألا تسمعون عزفها، وموسيقاها .؟

ألا تبهركم عذوبتها وألقُها..؟

انظروا..

"المفرقون بين الأحبة"

"الأحبّة"..!!!

إن اختيار هذه الصيغة من صيغ الجمع لم يكن صُدفة ولا اعتباطاً

إن ما في كلمة "الأحبة" من رقة، وشفافية، وفيض حنان، تصور لك عمق إحساس "محمد" ﷺ بالحب، وعظيم ولائه له..

وها هو ذا يخبر أن أحبَّ الناس إليه، هم الذين يحبون. ويألفون.ويؤلفون .

وأن أبغضهم إلى نفسه، هم الذين يفرقون بين الأحبة

ذات يوم أقبل عليه السلام على أحد أصحابه وقال له:

"يا أبا أيوب.

ألا أدلك على تجارة..؟؟..

ألا أدلك على عمل يرضاه الله ورسوله..؟؟

قال أبو أيوب: بلى يا رسول الله.

قال له "الرسول" عليه الصلاة والسلام: صِلْ بين الناس إذا تفاسدوا.. وقرِّب بينهم إذا تباعدوا.."

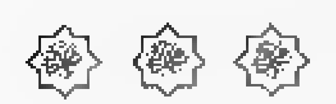
* * *

هذا رسول، أحَبَّ الحبَّ، وأدرك قيمة دوره في حياة البشر

فقال في الحب قولا بليغًا، وسديدًا..

وعاش حياته كلها حبًا، وودودً

عليه صلوات ربنا وسلامه



الفصل الرابع

..والسمو حرفته



يُروى عنه وهو طفل صغير ـ أن بعض رفاقه وأترابه جدّوا في البحث عنه طويلاً ـ ذات يوم ـ حتى وجدوه بعد طول عناء جالسًا في ظل حائط عند أطراف مكة وهمّوا به ليأخذوه معهم إلى سمر فيه زمر، وطبل، ولهو. فهز الطفل الصغير رأسه معتذرًا، وقال:

"أنا لم أخلق لهذا.."

* * *

وبعد أن جاءه الوحي يدعوه إلى حمل تبعاته كرسول للناس وبشير، ونذير ـ قامت زوجته خديجة رضي الله عنها ذات ليلة تلتمس مكانه حتى وجدته أخيرًا، مختليًا وحده يناجي ربه في إخبات عميق

وحشيت خديجة على صحته من أسهر الموصول، فاقتربت منه في رفق، وذكرته بحق جسمه في نوم يريحه، ويشد أزر العافية فيه، فأجابها "محمد" عليه السلام:

"انتهى عهد النوم يا خديجة..!!"

* * *

وحين انتهى عمله على الأرض، وأدى الواجب الذي اختير لأدائه، وأكمل الله له دينه، وأتم عليه نعمته، مرض مرض الموت

وإذ هو راقد في فراشه وحوله بعض أهله، أخذته نشوة حبيبة.

وأطلق عينيه نحو السماء في حبور عظيم، وأخذ يقول:

"بل الرفيق الأعلى..."

"بل الرفيق الأعلى..."

وفاضت روحه، صاعدة إلى الرفيق الأعلى !

"الرفيق الأعلى". هاتان الكلمتان اللتان ختم بهما "محمد" ﷺ كلامه في الدنيا ـ هما قصة حياته.

وهما ليست كلمتين فحسب بل الحقيقة الكبرى التي فتح "محمد" ﷺ عليها عينيه طفلا وأغمضهما لحظة الموت وهو يلهج بها ويرددها في ولاء منقطع النظير.

لقد عاش "محمد" حياته كلها مع "الرفيق الأعلى"..

عاش مع الله وعاش مع المستويات الرفيعة التي حلّق عندها رسل الله وعاش مع القيم العليا التي آثرها على مناعم الدنيا وجاهها، وغرورها.

وتناول "محمد" تبعاته بيد أستاذ عظيم..

وهكذا اكتست تصرفاته بطابع كله سمو وجمال وجلال

والسمو في حياة "محمد" يزدهر ويترعرع، كما تزدهر البذور وتنمو في مزرعة طيبة التربة، طيبة المناخ، ريّنة بالماء

والسمو عند "محمد" ﷺ ليس حدًّا صارمًا، ولا تقوى عابسة، ولا وقارًا مكفهرا.

إنما هي الأناقة..

أجل ـ أناقة النفس، وأناقة الجسم، وأناقة السلوك..

أناقة الكلمة التي ينطقها.. وأناقة الحركة التي يأتيها، وأناقة النوايا التي يضمرها

وبعبارة واحدة، أناقة حياته كلها

والأناقة في سلوك "محمد" ﷺ ليست تكلفًا، ولا محاولة.. إنما هي طبيعة تنساب تلقائيًا، وتعبر عن نفسها في مزاج بسيط وعظيم..

"ومحمد" ﷺ يفرح بكل يوم جديد، لأنه سيزداد فيه سموًا، وصعودًا إلى الرفيق الأعلى.

إنه يدعو ربه دائمًا هذا الدعاء :

" اللهم آت نفسي تقوها. زكها.. أنت خير من زكاها ".

فتزكية النفس، مسألته الكبرى التي يعش لها

وهو لا يزكيها بأي من تلك الوسائل التي تقوم على الانطواء والأنانية بل يزكيها وسط المعمعة.

وفي ضوضاء الحياة اللجبة، وبين تناقضاتها المثيرة، يعمل "محمد" ﷺ ليحرز السمو الذي قرر أن يضرب فيه رقمًا قياسيًا بعيد المدى

ومن ثم، فهو لا يعمل لنفسه وحدها، بل للناس جميعًا.

والسمو الذي أدركه لم يذهب به وحده . ولم يخلفه ميراثًا مقصورًا على الأهل والأقرباء بل صار طريقًا عامًا للأجيال الآتية من قريب وبعيد

حين يتحدث "محمد" نبصر السمو والأناقة في حديثه.

وحين يعمل "محمد" نجد السمو والأناقة في عمله وتصرفاته

بل حتى حين اضطره أعداؤه لمنازلتهم، نجد السمو الرفيع في نزاله وصراعه، فهو يأمر الجيش المقاتل ألا يضرب إلا من يضربه ويرفع عليه السلاح

"لا تقتلوا امرأة، ولا وليدًا، ولا شيخًا ولا تحرقوا نخيلًا ولا زرعًا.."

وحتى الذين يرفعون أسلحتهم ويخوضون الحرب ضد "محمد" ودعوته وأصحابه، ينهى عن التمثيل بهم وينهى عن تشويههم ويقول لأصحابه

"اجتنبوا الوجوه، لا تضربوها.."

والسمو عند "محمد" يتمثل في نشدانه الأكمل دومًا، والأفضل أبدًا، كما يتمثل في تعلق إرادته الذكية بكل ما هو حسن ونافع

ها هو ذا يقول

"إن الله يحب معالى الأمور، ويكره سفاسفها.."

ولقد أحب "محمد" ﷺ معالي الأمور تأسيًا بربه، واستجابة لفطرته وحين نتتبع أدعية "محمد" ﷺ التي كان يناجي بها ربه وخالقه،يتكشف لنا عزمه الشديد بالسمو.. سمو النفس وسمو العمل.

فهو ـ في دعائه ـ لا يسأل الله مغنما خاصًا، ولا شيئًا من شهوات النفس. إنما يسأل دائمًا وسائل الارتقاء النفسي والسمو الأخلاقي

"اللهم أصلح لي ديني الذي هو عصمة أمري.. وأصلح لي دنياي التي فيها معاشي، وأصلح لي آخرتي التي إليها معادي، واجعل الحياة زيادة لي في كل خير. واجعل الموت راحة لي من كل شر."

* * *

"اللهم اغفر لي خطيئتي وجهلي، وإسرافي في أمري، وما أنت أعلم به مني.."

"اللهم اغفر لي جدي، وهزلي، وخطئي، وعمدي وكل ذلك عندي."

"اللهم اغفر لي ما قدمت وما أخرت، وما أسررت وما أعلنت، وما

أنت أعلم به منى، أنت المقدم، وأنت المؤخر، وأنت على كل شيء قدير.."

* * *

"اللهم إنى أعوذ بك من العجز، والكسل، والبخل، والهرم، وعذاب القبر."

"اللهم آت نفسى تقواها. زكّها أنت خير زكاها. أنت وليها ومولاها.."

"اللهم إنى أعوذ بك من علم لا ينفع، ومن قلب لا يخشع، ومن نفس لا تشبع، ومن دعوة لا يستجاب له.."

* * *

"اللهم إنى أعوذ بك من مُنكرات الأخلاق، والأعمال، والأهواء"

* * *

"اللهم ألهمنى رشدى، وأعذنى من شر نفسى"

* * *

"اللهم اكفنى بحلالك عن حرامك، واغننى بفضلك عمن سواك.."

* * *

"اللهم إنى أسألك حبك، وحب من يحبك، وحب العمل الذى يبلغنى حبك.."

"اللهم اجعل حُبّك أحب إلى من نفسى، وأهلى ومن الماء البارد."

* * *

"اللهم إنى أسألك الهدى، والتقى، والعفاف، والغنى"

"يا حى يا قيوم برحمتك أستغيث أصلح لى شأنى كله، ولا تكلنى إلى نفسى طرفةَ عين.."

"اللهم إنى أسألك الرضا، بعد القضا.."

"وأسألك بَرْدَ العيش بعد الموت.."

"وأسألك لذة النظر إلى وجهك، والشوق إلى لقائك، فى غير ضراء مُضرة، ولا فتنة مضلة وأعوذ بك اللهم، أن أظلم أو أظلَم، أو أعتدى، أو يُعتدى علىّ، أو أكْسب خطيئة، أو ذنبًا لا تغفره"

* * *

"اللهم اهدنى لأحسن الأعمال، وأحسن الأخلاق لا يهدى لأحسنها إلا أنت، وقنى سيئ الأعمال، وسيئ الأخلاق لايقى سيئها إلا أنت.."

* * *

هذا نموذج للدعوات التى كان "محمد" ﷺ يلح بها على ربه صباح مساء. كلها تدور حول السمو النفسى والسلوكى الذى كان "محمد" يعشقه، ويعيشه، ويحياه

لم يسأل الله جاهًا.. ولا منصبًا.. ولا مُلكًا.

بل سأله الانتصار على ضعفه، والتفوق على نفسه، وسأله أحسن الأعمال، وأحسن الأخلاق.

والكلمات التى صح منها دعواته، تكشف عن هُيامه العارم، وشوقه الكبير، وتعلقه الفذ بهذا السمو الذى دارت حوله كل أدعيته وابتهالاته

* * *

وتبدأ رحلة السمو عند "محمد" ﷺ باجتناب الشُبهات، والله قد عهدنا

لنستمع له يقول

"الحلال بيّن، والحرام بين، وبينهما مُشتبهات، لا يعلمهن كثير من الناس. فمن اتقى الشُبهات فقد استبرأ لدينه وعرضه. ومن وقع في الشبهات، وقع في الحرام، كالراعي يرعى حول الحمى، يوشك أن يرتع فيه.."

ويحدثنا "وابصةُ بن معبد" فيقول:

"أتيت رسول الله ﷺ وأنا أريد ألا أدع شيئًا من البر والإثم إلا سألتُ عنه.."

"فقال لي ادنُ يا وابصة، فدنوت منه حتى مسّت ركبتي ركبته، فقال لي.."

"يا وابصة: أخبرك عما جئت تسأل عنه؟؟ قلت يا رسول الله أخبرني. قال جئت تسأل عن البر والإثم. قلت: نعم

فجمع أصابعه الثلاث فجعل ينكتُ بهن في صدري، ويقول يا وابصة استفت قلبك"

"البر ما اطمأنت إليه النفس، واطمأن إليه القلب. والإثم ما حاك في القلب وتردّد في الصدر، وإن أفتاك الناس، وأفتوك."

إن في كل ضمير إنساني ما يشبه "حركة الرادار" تختلج وتهتز حين يوشك سلوكك أن يرتطم بسيئة، أو ينحرف إلى ضلالة

وعندما يتبدى لنا هذا النذير، علينا أن نكفّ، ونغير الاتجاه ولا ننتظر حتى يقع الاصطدام، ونواتج الأخطاء

هذا هو ما نعنيه "تجنب الشبهات"

إن الخطأ الصغير يفضى إلى الخطأ الكبير

و "محمد ﷺ" فى سموه الذى يحيا به، ويدعو له، يحذر من الأخطاء الصغيرة لأنها آفة السمو والتفوق.

إنه يقول

"دع ما يريبك، إلى ما لا يريبك."

* * *

"لا يبلغ العبد أن يكون من المتقين، حتى يَدَع ما لا بأس به، حَذَرًا مما به بأس.."

ويسأله سائل آخر عن الإثم فيقول له

"إذا حاك فى نفسك شىء فدعه.."

ويسأله عن الإيمان فيقول

"إذا ساءتك سيئتك، وسرتك حسنتك فأنت مؤمن"

* * *

هذا هو "النقد الذاتى" يقرره "محمد" ويجعله الميزان العادل، والقسطاس المستقيم.

وهذا "النقد الذاتى" بداية كل حياة صاعدة، وأساس كل تفوق واكتمال

ولكن هذا النقد لا ينبغى أن يجاوز مهمته فيتحول إلى سوط عذاب، وإلى ملامة دائمة تثير الشمئزاز الإنسان من نفسه، وتنمى لديه الشعور الحاد بالإثم وبالدونية.

فهو يقول لنا "محمد" عليه صلاة الله وسلامه:

"كل بنى آدم خطّاء، وخير الخطائين التوابون".

كما أن نأي الرسول ﷺ عن الشبهات لم يكن يعني أنه مترمت، وأنه يمارس تقوى صارمة عابسة..

لا.. فمثل هذه التقوى تكون حظها من السمو الحق، ضحل وقليل

إنما كانت تقوى "محمد" ﷺ تقوى فَرِحَة، متفتحة، ناشطة.

وسموه كان سمو العظماء بالفطرة، فلا تكلف، ولا صلف، ولا انطواء

إنه ليمازح أصحابه في وقار، ويشجعهم على أن يمازحوه في وقار

وإنه ليسابق زوجته عائشة في المسجد، فيسبقها مرة، وتسبقه مرة أخرى.

وإنه ليسأل عائشة يومًا، وقد زفّت جاريةً لها إلى زوجها ـ قائلا

"هَلاَّ بعثتم معها من يغنّي لها يا عائشة؟؟".

فتسأله عائشة.. يغني لها ؟؟

وماذا يقول في غنائه يا رسول الله..؟؟

فيجيبها، يقول

"أتيناكم، أتيناكم .. فحيونا. نُحييكم .

ولولا الحنطة السمراء .. ما سمنت فتاياكم .

ولولا الذهب الأحمر.. ما حلّت بواديكم"..!!

وإنه ـ عليه السلام ـ ليبتهج ابتهاجًا عظيمًا، بالكلمة الحلوة الطيبة تقال له . أو تقال عنه .

جلس يومًا في فناء بيته يخصف نعله، على مقربة منه جلست "عائشة" تطهو طعامًا.. ونظرت إليه فوجدته يعاني خصف نعله في مشقة وكبد، وجبهته تتفصد عرقًا.. وأرادت أن تسليه، فقالت:

"لكأنك المعْنيُّ بقول الشاعر يا رسول الله فتهلل وجهه. وقال: وماذا قال يا

عائشة..؟!"

قلت

ومُبرإٍ من كل غُبَّرِ حيضه وفساد مرضعة، وداء مُغْيِل

وإذا نظرت إلى أسِرَّة وجهه برقت كبرق العارض المتهلل

وإذا الرسول ﷺ يضحك في جذل عظيم، ويغمره حبور مشرق، ويقول، وقد عمته النشوة.

"لا فُضَّ فُوك يا عائشة.."

"لا فُضَّ فُوك يا عائشة.."

وإنه ليجيئه يومًا أحد المسلمين فزعًا من هول خطيئة ارتكبها فيقول "الرسول" في بساطة.

"هل شهدت معنا الصلاة ؟.."

"فيجيبه الرجل: نعم.."

"فيقول الرسول: لا تُرَع إن الحسنات يُذهبن السيئات..!!"

ويتهلل وجه الرجل، ويسترد ثقته بنفسه من فوره.

وهكذا كان محمد ﷺ يمسك بميزان التسامي والتفوق

- احذر الخطأ.

- فإذا عثرت على أمرك وأخطأت، فاحذر اليأس.

أجل

- احذر الخطأ..

- واحذر اليأس

- وامض في طريقك راجيًا، صامدًا، صاعدًا..

والسمو عند "محمد" ﷺ يعنى إتقان العمل الذى نقوم به

"إن الله يحب إذا عمل أحدكم عملاً أن يُتقنه.."

ويعنى كذلك حُب الجمال ـ جمال النفس، وجمال العمل، وجمال المظهر والمخبر

"إن الله جميل يحب الجمال"

ويعنى البساطة، والتواضع، ونبذ الغرور:

"يأيها الناس: إن ربكم واحد، وإن أباكم واحد.. ألا لا فضل لعربى على عجمى، ولا لعجمى على عربى، ولا أحمر على أسود، ولا أسود على أحمر إلا بالتقوى. إن أكرمكم عند الله أتقاكم. ألا هل بلَّغت."

* * *

"من بطَّأ به عمله، لم يُسرع به نسبه."

* * *

والسمو كذلك يعنى الصدق، ويتطلبه

الصدق مع أنفسنا، والصدق فى علاقتنا بالناس، وبالأشياء يقول عبد الله بن عمرو بن العاص:

"قلنا: يا نبى الله، مَنْ خير الناس؟ قال: ذو القلب المخموم، واللسان الصادق.."

"قلنا: يا نبى الله، قد عرفنا اللسان الصادق، فما القلب المخموم؟.."

"قال: التقى الذى لا إثم فيه، ولا بغى، ولا حسد."

"عليكم بالصدق. فإن الصدق يهدى إلى البر، والبر يهدى إلى الجنة، ولا يزال الرجل يصدق، ويتحرى الصدق حتى يكتب عند الله صديقاً. وإياكم والكذب، فإن الكذب يهدى إلى الفجور، والفجور يهدى إلى النار وما يزال الرجل يكذب ويتحرى الكذب حتى يكتب عند الله كذابًا.."

* * *

"كبُرَتْ خيانة، أن تحدث أخاك حديثًا، هو لك به مصدق، وأنت له به كاذب.."

"شر الناس ذو الوجهين، الذى يأتى هؤلاء بوجه، وهؤلاء بوجه.."

* * *

والسمو أولا، وأخيرًا، يعنى حُسن الخلق، والمعاملة الطيبة المتازة للناس.

يقول عليه السلام

"ما من شىء أثقل فى ميزان المؤمن يوم القيامة من خُلق حسن.. وإن الله يبغض الفاحش البذىء"

* * *

"إن المؤمن ليدرك بحسن الخلق درجة الصائم والقائم"

"إن العبد ليدرك بحسن خلقه عظيم درجات الآخرة، وشرف المنازل.."

* * *

"إنكم لن تسعوا الناس بأموالكم، ولكن يسعهم منكم بسط

الوجه، وحُسن الخلق."

وأخيرًا

"ذهب حُسن الخلق بخير الدنيا والآخرة.."

ما أروع هذه العبارة الجامعة..

فالدنيا بما فيها من خير، والآخرة بما فيها من خير أعظم، يَرجحُهما، ويتفوق عليهما حسن الخُلق

إن الكلمة الطيبة، والتصرف الوديع الطيب، يبلغان بصاحبهما أشرف المنازل عند الله، وعند الناس

وهذا هو السمو عند "محمد عليه السلام" أن تمتلك ناصية نفسك، وزمام سلوكك، وأن يكون اسمك في أسماع الناس كنداء النجدة، لا كعويل العاصفة وأن تقوم علاقتهم بك على أساس من المحبة، لا الرهبة ومن الثقة، لا الشك ومن الطمأنينة، لا الفزع.

لقد بلغ "محمد" في سموه الأخلاقي مبلغًا لا يُطمع بعده في مزيد ومع هذا، فقد كان دائم الابتهال إلى الله بهذا الدعاء..

"اللهم كما حسنت خَلقي، فحسن خُلقي."

* * *

ويتجلى سمو "الرسول" ﷺ في حفاظه الشديد على كرامة الكائن البشري ومراعاته الذكية لمشاعر الناس

ذات يوم جيء إليه بسارق وأقبل الشاهد الذي رآه يسرق، فقال

نعم رأيت هذا يسرق

فقال "محمد" رسول الله ﷺ

"هلا قلت: رأيته يأخذ؟؟.."

انظروا الرجل.. ونظروا الإنسان

إنه ـ عليه السلام ـ طالما تحدث عن السرقة، كجريمة، وعن السارقين كحثالة

ولقد أسمى السرقة: سرقة.. وأسمى السارقين ـ سارقين.

ولكن عندما يصير الأمر أمر فرد بذاته، والتهمة تلقى في وجهه، وفي مواجهته.. فهنا ينبغي أن تراعى مشاعره، لأنه قبل أن يكون مجرمًا، فهو إنسان فيه أشياء كثيرة ينبغي أن ترحم، وأن تكرم.

وهكذا ود محمد لو أن الشاهد قال "رأيته يأخذ" ولم يقل " أبته يسرق "..!

أين نجد تكريمًا للناس، ولمشاعرهم وأين نجد حنانًا صادقًا دافقًا مثل هذا التكريم، ومثل هذا الحنان..؟؟

هذه كانت شيمة "محمد" ﷺ دائمًا

لم يكن يواجه أحدًا بأخطائه أمام الناس بل يقول

"ما بال أقوام يفعلون كذا، وكذا.."

تاركًا الفاعل الحقيقي يحس ذنبه، ويعرف خطأه، دون أن يعرف الآخرون عنه شيئًا

وذات يوم، وهو جالس مع أصحابه بالمسجد ينتظرون الصلاة، وكانوا حديثي عهد بوليمة أكلوا فيها لحم جزور، انبعثت في المجلس ريح غير طيبة أدرك "الرسول" أنها من عادات الخوف، وتمس الأمعاء

وأدرك أن صاحب هذه الريح قد وقع في حرج شديد فالمفروض أنهم جميعًا متوضئون وبعد لحظات سيقومون للصلاة، فإذا أراد ذلك الرجل المجهول

أن يقوم ليتوضأ، بأن للآخرين أنه مصدر الريح الكريهة وفي هذا حرج له، وإخجال..

وهنا أدار "الرسول" بصره على وجوه الجالسين جميعًا وقال:

"من أكل لحم جَزور.. فليتوضأ..!!"

قال أصحابه: كلنا أكلنا لحم جزور يا رسول الله.

قال: "إذن، كلكم يتوضأ"..!!

وقاموا جميعًا للوضوء، ومن بينهم هذا الذي أنقذته من الحرج بلباقة "محمد" ﷺ، وفطنته، ورقة إحساسه!!

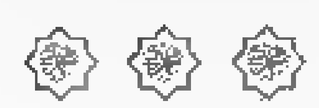
أية شمائل سامية، هذه التي تعنى بكل دقيقة وصغيرة تمس شعور الناس، وأحاسيسهم ؟؟!!

* * *

إن سمو "محمد" ليسبق كل محاولة لوصفه، أو الإحاطة به وأعظم ما فيه أنه ابن الفطرة، ووليد السجية والبديهة.

وليس ثمة كلمات تستطيع تصوير سموه سوى كلماته هو التي قالها متحدثًا بنعمة الله عليه

"أدبني ربي.. فأحسن تأديبي.."



الفصل الخامس

.. ومشاكل الناس عبادته



لنبدأ بهذه القصة..

كان من بين أصحاب النبي ﷺ، صحابي جليل هو "عثمان بن مظعون" رضي الله عنه..

وكان عثمان متبتلا، غير مشفق على نفسه في العبادة، حتى لقد همَّ ذات يوم أن يخصي نفسه، ليتخلص نهائيًا من نداء غريزة الجنس.

وذات مرة دخل الرسول على زوجته عائشة، فوجد معها بعض النسوة، ووقعت عينه على إحداهن، وكانت رثة الهيئة مكتئبة المُحيا.

فسأل "محمد" عن أمرها، فقيل له: إنها زوجة عثمان بن مظعون وإنها تشكو بثها وحزنها، فعثمان مشغول عنها بالعبادة ـ يقوم ليله، ويصوم نهاره..

وذهب الرسول ﷺ حيث لقي ابن مظعون، فقال له:

"أما لك بي أسوة؟؟.."

"قال: بأبي أنت وأمي. وماذا.."

"قال الرسول: تصوم النهار، وتقوم الليل؟"

"قال: إني لأفعل.."

"قال الرسول لاتفعل.."

"إن لجسدك حقًا، وإن لأهلك حقًا.."

ومتثل "عثمان" نُصح الرسول ﷺ وأمره، وقرر أن يؤدي حق أهله؟!"

والآن، انظروا بقية القصة..

فى صبيحة اليوم التالى ذهبت زوجة "عثمان بن مظعون" إلى بيت النبى ﷺ عطرة، نضرة، كأنها عروس .. واجتمع حولها النسوة اللاتى كانت تجلس بينهن بالأمس، رثة بائسة ..

وأخذن يتعجبن من فرط ما طرأ عليها من بهاء، وزينة ..

قلنَ لها: ما هذا يا زوج ابن مظعون .. ؟؟

قالت: وهى تضحك من قلبها:

ـ "أصابنا ما أصاب الناس" .. "؟!"

* * *

بالأمس، لم يستطع الرسول ﷺ على الأمر صبرًا، حين رأى أمامه زوجة يؤرقها هجر زوجها، وتصيبها مرارة الحرمان، فخف لنجدتها، وذكّر زوجها بما له عليه من حق.

فما أن جَنَّ عليها الليل، ثم طلع عليها صبح يوم بهيج، حتى كانت تزهو فرحة مطمئنة، تقول لصاحباتها:

ـ "أصابنا ما أصاب الناس"

أليس عظيمًا، وقد أحاطت عظمته بكل شىء؟

أليس إنسانًا، وقد وسعت إنسانيته كل شىء؟ ـ هذا الرسول الذى تشغله وتهمه مشاكل الناس إلى هذا الحد، وإلى هذه الغاية .. ؟!!

حقًا، إنه لرحمة مهداة.

وإنه ـ عليه الصلاة والسلام ـ ليجعل السهر على مشاكل الناس، والسعى لحلها، عبادة من أفضل العبادات .. وقربى من أزكى القربات.

يقول فى هذا المقام:

"لأن أمشى مع أخ فى حاجة، أحب إلىّ من أن أعتكف فى

مسجدى هذا شهرًا.."

ويسأله سائل

"يا رسول الله: أى الناس أحبُّ إلى الله.؟"

"فيجيب عليه السلام: أحب الناس إلى الله أنفعهم للناس"

ويحض الناس على التكافل حضًّا لا ينقطع، ويرفع خدمة الناس إلى الذروة بين الأعمال الصالحة

يقول عليه السلام

"إن لله خلقًا خلقهم لحوائج الناس، يفزع الناس إليهم فى حوائجهم، أولئك الآمنون من عذاب الله!"

إن زكاة الجاه، لا تقل شأنًا عند "الرسول" ﷺ عن زكاة المال والثروة والذين يبخلون بجاههم، ومقدرتهم ويقصون جاههم ونفوذهم وجهدهم - عن مساعدة الآخرين ومساندتهم، ليسوا من الله فى شىء، وما لهم بين الخيرين مكان

وإنما الإنسان حقًّا، والمؤمن حقًّا، هو الذى يكون للآخرين عونًا وناصرًا

يقول عليه السلام

"من كان وُصلةً لأخيه إلى ذى سلطان فى مبلغ بر، أو إدخال سرور، أو تيسير عسير، أعانه الله على إجازة الصراط يوم القيامة عند دحض الأقدام، ورفعه فى الدرجات العُلى من الجنة"

بل إن الرسول ﷺ، ليرى فى خدمة الناس، نعمة من الله أنعمها على الذين يوفقون لها

وهو هذا يحذر من مللها، والسأم منها، حتى لا تزول

يقول عليه السلام.

"إن لله أقوامًا اختصهم بالنعم لمنافع العباد.. يُقرّهم فيها ما بذلوها.. فإذا منعوها نزعها منهم، فحولها إلى غيرهم.."

بيد أن الرسول ﷺ يريد هذه الخدمة خالصة، ويريدها أمينة عادلة فإذا شفعت لإنسان، وسرت معه في حاجته وقضيتها، فيجب ألا تأخذ مثوبة شفاعتك ومسعاك، رشوة محرمة..

وأيضًا، يجب ألا يكون مسعاك به نوعٌ من المحاباة الظالمة والتحيز الذي يضيع على آخر حقًّا..

أعني - أن مساعدة الآخرين، يجب أن تتم في نزاهة كاملة فلا تنتظر عليها أجر المرتشي، ولا تساعد أحدًا في نيل ما ليس له بحق..

يروى عنه عليه السلام قوله.

"من شفع شفاعة لأحد فأهدى له هدية عليها فقبلها، فقد أتى بابًا عظيمًا من أبواب الكبائر"

إن "محمدًا" ﷺ أوصى الناس أن يتهادوا، وأخبر أن تبادل الهدايا فيما بينهم يشد أصرة الوُد والإخاء..

ولكن عندما تصبح الهدية، رشوة متكرة، فإنه يرفضها ويحذر منها على النحو الذي رأينا

وأنت حين تشفع لأحد شفاعة عادلة فإنك بهذه الشفاعة تؤدي زكاة جاهك، فإذا تقاضيت عليها مثوبة، ولو هدية كنت كمن يدفع لفقير زكاة ماله، ثم يتقاضاه بديلاً، وعوضًا عنها !!

هذا موقف "محمد" ممن يأخذ على شفاعته وعونه أجرًا

أما موقفه ممن يجني بشفاعته محاباة تضييع حقوق الآخرين فها هو ذا

"من أعان ظالمًا بباطل، ليدحض به حقًا فقد برئ من ذمة الله وذمة رسوله.."

* * *

"مثل الذي يعين قومه على غير الحق، كمثل بعير تردى في بئر، فهو ينزع منها بذنبه."

"أي يحاول الخلاص دون أن يقدر عليه!!."

هكذا ينهى الرسول عن التكافل الإنساني كل حنث، ويحرره من كل غرض رخيص ودخيل.

وإذ كانت حاجات الناس ومشاكلهم، لا سيما إذا كانت مشاكل جماعية، وحاجات اجتماعية ـ تتطلب قدرة لا تتوافر لغير أولي الأمر، والقائمين بالحكم

أقول، إذ كان ذلك كذلك، فإن الرسول ﷺ جعل هذه الحاجات أمانة ووديعة بين أيدي الحاكمين.

فأما من يصون الوديعة منهم فهذه مثوبته

"إن المقسطين عند الله على منابر من نور، عن يمين الرحمن، وكلتا يديه يمين."

وأما من فرّط، واحتجب عن الناس، وأهمل شئونهم، فهذا جزاؤه

"ما من أمتي أحد ولي من أمر الناس شيئًا لم يحفظهم بما يحفظ به نفسه، إلا لم يجد رائحة الجنة.."

* * *

"ما من إمام يغلق بابه دون ذوى الحاجة والخلة، والمسكنة - إلا أغلق الله أبواب السماء دونَ خلته، وحاجته، ومسكنته."

"من ولى من أمر الناس شيئًا فاحتجب عن أولى الضعف والحاجة، احتجب الله عنه يوم القيامة"

* * *

إن محمدًا الإنسان البار الكريم، يريح جميع العقبات من طريق الناس، ويفتح جميع الأبواب لتنفذ منها مشاكلهم ومآسيهم حتى تلك الأبواب الصخمة المدججة بالحرس والرهبة - يفتحها "محمد"، ويأمر بإخلاء الطريق للضعفاء، وذوى الحاجة، حتى يقولوا كلمتهم للحاكم الذى عليه أن يسمعها ويصغى لها، ثم ينجز ما تستحقه من رعاية وكفالة

ولأن رعاية الناس، وصون مصايرهم، هما وظيفة الحاكم، وهما لُباب عمله وواجبه - حذر "محمد" ﷺ أن توضع هذه المصاير فى أيدٍ مرتجفة، هزيلة يقول عليه السلام

"من استعمل رجلا من عصابة وفيهم من هو أرضى لله منه، فقد خان الله، ورسوله، والمؤمنين."

أجل.. إن الأيدى القوية، النظيفة، العادلة، البارة، هى وحدها التى تؤتمن على مصاير الحق، وحاجات الناس

إن الحكم تضحية لا تجارة، وخدمة لا استعلاء

ولكنا نحسبه زهوًا، وعُلُوًّا؛ فنسارع إليه، ونرتمى عليه

لننظر ماذا يقول "الرسول" ﷺ

"ليأتينَّ على القاضى العادل يوم القيامة ساعة، يتمنى أنه لم

يقض بين اثنين في تمرة..!!"

قاض عادل ؟؟

وتمْرة ؟؟

فكيف بالظالم إذن..؟؟

وكيف بالذين يغتالون الحقوق، ويعصفون بالمصاير ؟!! ولنقرأ هذا حديث أيضًا

"إن شئتم أنبأتكم عن الإمارة.

أولها ملامة.

وثانيها ندامة .

وثالثها، عذاب يوم القيامة. إلا مَن عَدل.."

كل هذا، يقوله "محمد" ﷺ حرصًا منه على مصالح الناس، وحضًا على التفاني في خدمتهم، وتوفير العدل والأمن والخير لهم .

وكل ذي جاه يبخل بجاهه .

وكل ذي سلطان يجور بسلطانه

فقد خان أقدس أمانة أوصى بها "محمد الأمين" ألا وهي: حاجات الناس وحقوقهم ومصايرهم

"إن الله سائل كل راع عما استرعاه، حفظ أم ضيّع."

* * *

كان "محمد" ﷺ شديد الاهتمام بالناس، حتى لقد كان يحرم نفسه، وأهله ليوفر للناس بعض ما هم إليه محتاجون

وإذا كان قومه الذين يعيشون يومئذ بالمدينة، يعيشون لفة في الرزق وشظفٌ

فى الحياة؛ فقد جعل شعاره ونهجه أن يكون هو وأهله ـ أول من يجوع، إذا أصاب الناس مجاعة.. وآخر من يشبع، إذا أتى الناس شبع..!

ولطالما كان ينهى ذوى اليسار أن يمسكوا فضل ما عندهم ويحترموا فائض دخلهم.

يقول "أبو سعيد الخُدْرِى" رضى الله عنه :

"بينما نحن فى سفر مع النبى ﷺ، إذ قال لنا

"من كان معه فَضْلُ ظهر ـ أى راحلة فائضة عن حاجته ـ فليعدْ به على من لا ظهر له، ومن كان له فضل من زاد ، فليعد به على من لا زاد له.."

"ثم ذكر من أصناف المال ما ذكر حتى رأينا أنه لا حق لأحد منا فى فضل ـ أى فيما يزيد عن حاجته"

ويرفع "الرسول" ﷺ فى هذا المقام مثلا أعلى للناس كى يحذوا حذوه، فيقول

"إن الأشعريين إذا أرملوا فى غزو، أو قلَّ طعام عيالهم بالمدينة ـ جمعوا ما كان عندهم فى ثوب واحد، ثم اقتسموه بينهم فى إناء واحد بالسوية، فهم منى، وأنا منهم."

لقد كان "الرسول" ﷺ حريصًا على أن تكون طاقات المال والثروة فى خدمة الناس جميعًا، فحث على السخاء والبذل، وكرَّه إلى الناس الشح والاكتناز يقول لأصحابه

"أيُّكم مالُ وارثه، أحب إليه من ماله. ؟"

"قالوا: يا رسول الله، ما منا أحد إلا ماله أحب إليه" قال. فإن

ماله، ما قدّم - أى أنفق وبذل - ومال وارثه ما أخّر - أى ما اكتنز وادخر.."

ويقول عليه السلام

"ما من يوم يصبح العباد فيه إلا وملكان ينزلان فيقول أحدهما: اللهم أعط منفقاً خلفاً.. ويقول الآخر: اللهم أعط ممسكاً تلفاً.."

وضرب الرسول ﷺ مثلاً، ويرسم صورة جميلة لفضل الله حين يعمر البذلين، فيقول:

"بينما رجل يمشي بفلاة، إذ سمع صوتًا فى سحابة يقول: اسق حديقة فلان فتنحى ذلك السحاب فأفرغ ماءه فى حرة - أى أرض ذات حجارة سود - فإذا شرجة - أى مسيلُ ماء - قد استوعبت ذلك الماء كله، فتتبع الماء، فإذا رجل قائم فى حديقته يُحوّل الماء بمسحاته.. فقال له: يا عبد الله ما اسمك؟ قال: فلان وهو الاسم الذى سمعه فى السحابة.."

"فقال: ولِمَ تسألنى عن اسمى.."

"فقال: إنى سمعت صوتًا فى السحاب الذى هذا ماؤه يقول اسق حديقة فلان، لاسمك. فماذا تصنع فيها.."

"فقال: أما إذ قلت هذا فإنى أنظر إلى ما يخرج منها فأتصدق بثلثه وآكل أنا وعيالى ثلثًا وأرد فيها ثلثًا."

إنه مثل حين يضربه "محمد" ﷺ للناس، ليعلموا أن ما يبذلونه فى سبيل التكافل الاجتماعى لا يذهب عند الله بددًا، ولا يضيع عليهم شىء وإنما ينميه الله لهم، ويرده عليهم مغانم مضاعفة

وذات يوم زاره بنو عمرو بن عوف، وكانت لهم حدائق واسعة تُمتى إلى "الرسول" ﷺ أنهم أحاطوها بأسوار عالية، تحول بين الناس وبينها، فقال لهم "الرسول" حين قدموا عليه.

"يا معشر الأنصار، كنتم في الجاهلية - إذ لا تعبدون الله تحملون الكَلّ وتفعلون في أموالكم المعروف، حتى إذا منّ الله عليكم بالإسلام، وبنبيه، إذا أنتم تحصنون أموالكم..!! يا معشر الأنصار فيما يأكل ابن آدم أجر وفيما يأكل السبع والطير أجر."

ولم يكد الأنصار يسمعون هذا القول من رسول الله حتى عادوا فهدموا أسوار حدائقهم

ويقارن "الرسول" بين الباذلين والأشحاء مقارنة سريعة ولكنها فاصلة، فيقول:

"السخي قريب من الله؛ قريب من الجنة، قريب من الناس، بعيد من النار"

"والبخيل بعيد من الله، بعيد من الجنة، بعيد من الناس، قريب من النار."

ماذا يريد "محمد" ﷺ بتوجيهاته هذه؟

إنه يريد أن يكون المال خادمًا، لا سيدًا

ويريد أن تتوافر للناس جميع الفرص التي تبعد عنهم مرارة مشاكلهم، وشظف حياتهم، حتى يحيوا الحياة الطيبة التي يرجوها لهم.

وخدمة الناس عند "محمد" ﷺ مقدسة، ومثوبتها من الله عظيمة وسخية.

و "الرسول" الإنسان، البار بالناس، الحريص عليهم - يأمر أن يسدي بعضنا لبعض العون - أيًا كان هذا العون

يقول عليه السلام:

"لا تحقرنّ من المعروف شيئًا ولو أن تفرغ من دلوك في إناء المستسقي.. ولو أن تكلم أخاك، ووجهك إليه منبسط"

ولقد ذهب إليه بعض أصحابه يومًا أسيفين، لأنهم يريدون أن يتصدقوا من أموالهم، لينالوا ثواب المتصدقين ولكن لا أموال لهم يملكون منها

قالوا للنبي:

"يا رسول الله: من أين لنا صدقة نتصدق بها..؟؟ فقال: إن أبواب الخير لكثيرة: التسبيح، والتحميد والتكبير، والتهليل، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر.."

ثم قال:

"وتميط الأذى عن الطريق

وتسمع الصم..

وتهدي الأعمى،

وتدل المستدل، على حاجته..

وتسعى بشدة ساقيك مع اللهفان المستغيث، وتحمل بشدة ذراعيك مع الضعيف..

فهذا كله صدقة منك على نفسك.."

تأملوا قوله عليه السلام: "تسعى بشدة ساقيك مع اللهفان المستغيث، وتحمل بشدة ذراعيك مع الضعيف" إنها كلمات حارة مضيئة، تصور حنانه الدافق على الناس، وتصور رغبته المجيدة في أن يتبادل الناس المعونة، والمعروف، ويعيشوا معًا كالبنيان يشد بعضه بعضًا

و "الرسول" ﷺ كبير الحرص على كرامة الكائن البشرى

هو ينهى الذين يساعدون الآخرين عن أن يتبعوا أعمالهم بالمنّ والأذى

وإذا كان العون ماليا، يأمر أن نبذله فى السر

وفى كل حالات العون و مساعدة ينهى عن المن، لأن فيه جرحًا لمشاعر الذين تلقوا النصرة، والمعونة.

يقول عليه السلام

"خابوا، وخسروا.."

"قال أصحابه: مَن هُم يا رسول الله؟.."

"قال: المسبلُ إزاره خُيلاء

والمنّانُ بما أعطى..

والمنفق سلعته بالحلف الكاذب.."

المنان بما أعطى.."

يا لمحمد من إنسان ذكى الفؤاد، عظيم الحدَب

إنه يُطهّر العلاقات الإنسانية من كل أغشيتها الضارة، وأشواكها المؤذية

وإنه ليرفع خدمة الناس إلى مستوى الواجب الذى لا ينبغى أن يحول دونه أنانية، ولا يشوهه مَنّ، ولا يفسده غرور..

* * *

هذه حقيقة من حقائق قلب كبير عاش مع الناس فى آلامهم، وفيما يرجون ناصبًا لا يهدأ، يقظان لا ينام..

أجل ـ فلقد نامت عين "محمد" ﷺ كما قال. ولكن قلبه النابض اليقظان المتفجر حنانًا ورحمة، لم ينم. وكأنه لم يكن ينبغى له أن ينام؛ فعاش العمر كله فى يقظة دائبة، وصَحْوٍ مُتفتح

ـ مع ربه: يذكره ويعبده..

ـ ومع الناس: يدفع عنهم الكروب، ويعاونهم على شدائد الزمان، ويهديهم للتى هى أهدى وأقوم..

هذا نهج رسول، لباب عمله العبادة والنسك. ومع هذا فهو يعلن أن يضع خطوات يمشيها فى حاجة محتاج ـ أحب إليه، وأزكى لديه من أن يعتكف فى مسجده شهرًا ـ يقوم ليله ويصوم نهاره.!!

إنه إنسان، احتشدت خصائص الإنسانية وفضائلها فى نفسه احتشادًا بلغ الغاية فى القوة، والاتساق.

ثم هو إلى هذا، رسول اختاره الله على عِلْم، وأمدَّه بكل مزايا الاصطفاء.

* * *

وبعد..

فهذه "إنسانيات محمد".. أتراها قد انتهت عند آخر سطور هذا الكتاب؟؟

أو تحسب أن هذه الصفحات تزعم لنفسها أنها أوفَت على الغاية وشارفت المنتهى؟؟

كلا.. "فإنسانيات محمد ﷺ" متراحبة تراحبُ الأفق.. غزيرة كالضوء المنتشر.. عتلئة كالسحاب الثِّقال..!!

وهذا الجهد الذى أسعفه توفيق الله وعونه، ليس سوى "إيماءة" إلى هذه الإنسانيات الحافلة، التى صبغها الله بصبغته الحسنى، وجعلها للناس منارًا عاليًا.. وهاديًا.

فمن شاء، فليصطنع لنفسه من هـذه "الإنسانيات" قَـدْر مستطاعه، أسـوة حسنة وقدوة حافزة.

ومن شاء فليتخذ من هذه "الإيماءة" دليلا للطريقة التى يُحْسُن أن نفهم بها "محمدًا" ﷺ و "إخوة محمد" من الأنبياء المرسلين.



فهرس

كتب المؤلف

١ـ من هنا نبدأ
٢ـ مواطنون .. لا رعايا
٣ـ الديمقراطية، أبدا
٤ـ الدين للشعب
٥ـ هذا.. أو الطوفان
٦ـ لكي لا تحرثوا في البحر
٧ـ لله والحرية. (ثلاثة أجزاء)
٨ـ معا على الطريق محمد والمسيح
٩ـ إنه الإنسان
١٠ـ أفكار في القمة
١١ـ نحن البشر
١٢ـ إنسانيات محمد
١٣ـ الوصايا العشر
١٤ـ بين يدى عمر
١٥ـ في البدء كان الكلمة
١٦ـ كما تحدث القرآن
١٧ـ وجاء أبو بكر
١٨ـ مع الضمير الإنساني في مسيره ومصيره
١٩ـ كما تحدث الرسول(مجلد)
٢٠ـ أزمة الحرية في عالمنا
٢١ـ رجال حول الرسول(مجلد)
٢٢ـ في رحاب على
٢٣ـ وداعا عثمان
٢٤ـ أبناء الرسول في كربلاء
٢٥ـ معجزة الإسلام عمر بن عبد العزيز
٢٦ـ عشرة أيام في حياة الرسول
٢٧ـ .. والموعد الله
٢٨ـ خلفاء الرسول (مجلد)
٢٩ـ الدولة في الإسلام
٣٠ـ دفاع عن الديمقراطية
٣١ـ قصتي مع الحياة
٣٢ـ لو شهدت حوارهم لقلت
٣٣ـ الإسلام ينادى البشر
٣٤ـ إلى كلمة سواء (تحت الطبع)
٣٥ـ قصتي مع التصوف

تطلب كتب المؤلف من دار المقطم للنشر والتوزيع